تهيّؤات في متاهة الرؤى

المؤلف	طلال سليم آل جعفر	البلد	العراق
الكتاب	تهيؤات في متاهة الرؤى	نوعه	رواية
الحجم	١٤,٥*٢٢,٢	عدد الصفحات	١٠٦
الطبعة	الاولى		

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق الوطنية ببغداد

(٢٢٣٧) لعام ٢٠٢٠

تصميم الغلاف　　علي صميم



دار ماشكي للطباعة والنشر والتوزيع

العراق – الموصل - المجموعة الثقافية

ص.ب ١١٠١٩

هاتف: +9647701664335

E.mail: mashky2019@gmail.com

تهيّؤات في متاهة الرؤى
قناديل مطفأة في سماء بغداد

رواية

طلال سليم آل جعفر



الطبعة الثانية

٢٠٢٠

حيث يختلط القديم بالحديث ، والغريب بالمألوف في أجواء

(الف ليلة وليلة) البغدادية ، اختلطت الرؤى على

صابـر المــرهـون وتكــلم بلسان

رجل محق ما استطاع أن

يكونه واقعا .. فجنح

به الخيال لتنساب

على لسانه هذه

الرؤى

كقناديل مطفأة في سماء بغــداد

الإهداء ..

أخويّ الغائبين محمود ومؤيد* ..

لطالما استرقنا من واجباتنا الليلية أوقاتا كنا نتحدث فيها ونناقش فكرة شغلتنا ونحن نطالع بعض الروايات التي تبحث في فكرة لموضوع غريب .. ألا وهي فكرة (الرجل المحق) .. ومشروعية أحقيته فيما يقترف من محرمات .. وكان بودنا لو كتب أحدنا عنه .. ولماذا لا نشترك الثلاثة فيه مجتمعين ؟؟ وراقت الفكرة لكما .. ثم عدتما وتخليتما عنها مكلفين إيّاي بها .. ولوحدي . حاولت التنصل عن الفكرة، غير أن إصراركما على خوض التجربة شجعاني ،

وعاهدتكما .. وماطلت كثيرا قبل أن أمسك بقلمي متكئاً عليه ومعرضاً نفسي وأنا اخوض هذه التجربة لسهام الرامين وأقاويل القائلين فهل يا ترى سأوفّق فيما نبغي إيصاله من أفكار أم أخفق؟؟.

لا تهمني النتيجة بقدر ما يهمني من ثقتكما بي ، وأنني وفيت لما عهدتما اليّ ووعدتكما به .

لكما أولاً .. ولكل من ظن أنه (محق) فيما اجترح ويجترح من أعمال لا يقبلها المنطق أتقدم بهذا الجهد المتواضع ...

*محمود شاكر شبلي الكاظمي ..أديب عراقي يعيش الآن في المهجر. أمريكا ويبدع في كتابة المقامة. مؤيد شاكر عاشور الحلي أديب ومثقف عراقي أنقطع به الاتصال منذ زمن بعيد ولا أعرف له مكانا الآن.

مقدمة...

بين يدي الرواية

لست في معرض عجالتي هذه متعرضا لروعة (التهيّؤات) ولا باحثا في جماليات صورها وإبداع ما صاغه كاتبها في داخلها من صور ومشاهد تكاد تريك الأحداث رأي العين. ولكني سأركز فيها على تقنيات حديثة في داخلها لغاية في نفسي وغصة قديمة لازمتني منذ قرأتها للمرة الأولى قبل أكثر من عقد من الزمن سأبينها في النهاية من هذه الكلمات، مركزاً على تقنية تجميع شتات الرواية في البداية وهي تقنية الجدلية (الديالكتيك) الجامعة لأطراف الحالة السيكولوجية للشخصيات وعارضا بقية التقنيات عرضا سريعا، آملا أن يتولاها الباحثون يوما بعنايتهم وتفصيلهم .

تتجلى جدلية المتناقضات المكملة لبعضها في الرجل المحق (صابر المرهون) داخلاً الرواية من تقابل البادية مع الحاضرة، إذ يقدم من آفاق البادية وصولاً إلى بغداد مستمراً في تناقضات جدلية بين شريف اللاشريف، والزهيريات وأغاني الشيخ أمام عند نزلاء سجن القلعة، بين عقدة سهى وريم وصورة بيروت ودمشق، بين متجردة النابغة وزهد وتصوف رابعة العدوية، بين سيزيف وصخرته وحنين وخفيه، بين جرأة الفدائي وخوف الحبيب بين فلسفة الموت وبدائية وفوضى الحياة، بين مكابرات (عفاف الزايد) وانقيادها لشهواتها وتنقلها بين المدير والسائق،

بين تنقلات المرهون من الحانات إلى المراقد، ومن الماركسية إلى نصرة الإسلام في أفغانستان، بين خارطة فلسطين ولوحة القرد والايرلندية الفاجرة وبين جيفارا وعمر المختار .

كل ذلك جعل من الحالة الجدلية عموداً فقريا للرواية، وهي تقنية حديثة استخدمها الكاتب بإتقان قل نظيره. واستخدم معها تقنيات للرواية الحديثة سأعرج على بعضها الآن .

تبرز تقنية الحوار الداخلي في الرواية من خلال شخصية مجهولة تابعة لفكر الروائي منتقلاً إلى رواية بقية شخصياتها انتقالاً رشيقاً يكاد يخفى وهو بيّن كما في الفصل الاخير، ثم طريقته في استخدامه لتقنية اللقطة بلمحة سريعة من الماضي مندمجة بسياق السرد.

وتقنية التوافق الزمني للحوادث كاقتران خطيئة شخصية (عفاف الزايد) بجريمة نكراء تتمثل في مقتل المناضلين الفلسطينيين على أيدي الصهاينة في (فردأن – بيروت) ثم تظهر تقنية تشخيص المدن داخل الرواية، إذ تظهر لبيروت وبغداد ودمشق شخصياتها الواضحة المخفية في أن واحد.

كما نلحظ كذلك إدخال القصة داخل القصة مثل قصة شريف وقصة صابر داخل الحوار. وكذلك تقنية الاقتباسات التي تغني عن التطويل من الامثال والاقوال وأشعار الأغاني الشائعة وصولاً إلى الكتب المقدسة والميثولوجيا. وتداخل التجارب المتشابهة لفسح المجال أمام خيال القارئ للحكم والقرار دون التدخل في أحكامه مما يعطي القارئ رياضة فكرية مستمرة داخل الرواية، مضيفاً لها استخدام تقنية

التهميش لتثبيت نقاط مرجعية على طريق السر مثل هامش (آخر ما قاله صابر المرهون) إضافة لإتقان الروائي فن الانتقال من الفصحى إلى المحلية بحبكة ذكية أجاد خلالها في نقل سياق المفردة البغدادية أيما إجادة . كما كان لاستخدام المؤلف أسلوب إخفاء جانب من المكالمات الهاتفية تاركاً لخيال القارئ الذكي استشفاف كنهها عاملا مهما لشد القارئ إليها وإشغاله بها .

وأرى أنه قد أبدع في استخدامه لـ :-

- تقنية { اللحظة المركزة } (منتصف ليلة ١٩٧٣/٤/١٠م) .

- تقنية حشد الأسئلة متمثلة بفصل (غسان الذي رأى) والتي تقود إلى الحرية وكشف الأسرار الخبيئة للشخصية في أن واحد .

- تقنية استخدام شخصيات طارئة على الرواية لا تستمر طويلاً ولكنها وفجأةً تعاود الظهور دائماً في أماكن تستدعيها لزوماً .

- تقنية الاعتراف وإيضاح نظرية الشخصية الروائية متمثلة (بالأوراق) من وجهة نظر غسان و (الملحقة) من وجهة نظر صابر المرهون .

وهنا - وبعد عرض سريع لهذه التقنيات الروائية – محل ذكر (القصة) التي ذكرتها في أول كلماتي هذه ، فجميع هذه التقنيات لم تنضج في مسيرة الرواية العربية الحديثة إلا في نهاية عقد التسعينيات من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الواحد والعشرين بل أن بعضها لم يظهر ويتميز إلا خلالها . فمن أين لـ (طلال سليم آل جعفر)

هذه التقنيات في رواية كتبت في بداية الثمانينيات من القرن العشرين ؟!!...

إنه الإبداع الخلاق والريادة التي لو ظهرت بطباعة الرواية في حينها، أي زمن كتابتها .. لأقر بها البعيد قبل القريب .. وأصبحت فتحاً روائياً يؤرخ لريادة متميزة على مستوى البلاد العربية من محيطها إلى خليجها.

وأخيرا.. يحدوني أملان وأنا أختم كلماتي المتواضعة في حضرة هذه الرواية العجيبة:

أولهما ... أن تنال يوماً ما تستحق من الدراسة والتحليل والإشادة والثناء لكي لا تبقى ابنة مظلومة على قارعة طريق الرواية العربية.

وثانيهما... أن يستمر هذا المبدع الخلاق بإتحافنا بالمزيد من مثل هذا الفن المتميز والعطاء المتفرد .

مهند ناطق الحديثي

١٣/ ٨/ ٢٠١٨م

٢/ ذو الحجه /١٤٣٩هـ

القسم الأول

صابر يتكئ على الماضي

ويتآكل . .

ويبقى على القمة



ودخلت بغداد أيها الولد المضرج بالحياء . دخلتها واثق الخطى. كنت ما تزال دون الرجولة مشدوداً إليها بحبل سري لا يعرف كنهه أو معناه . بين المراهقة والرجولة كنت حين دخلتها مختلسا مصروف أسابيع من جيب أبيك المضنى، هاربا من نعيم كنت تظنه جحيما . دخلتها زائرا غير مقيم وضيفا غير عزيز ولا مضيّف لك إلا فندق (بلقيس) القابع في ركن معتم من المدينة . للمرة الأولى في حياتك تعرف ما يعني الفندق الذي سمعت عنه الكثير ولم تره ، إذ علمتك البادية التي عشت فيها أن كل بيت من بيوتها فندق للرائح والغادي أيا كان وأنى تكون وجهته. (غشيماً) كنت، تظن أن العالم بخير وتظن أن ما ملأ جعبتك من مبادئ ستحفظك بعيدا عن الإثم وشره. حلمت وأنت متدثر بأغطية الفندق البالية بأمجاد ستبنيها حتى خيل اليك أنك ستكون الدالة على قومك. لم تنم ليلتك تلك .. صريع أحلامك كنت حينها، لا يستلك منها إلا برغوث يطن قرب أذنيك أو قرض جرذ تحت سريرك حتى إذا بدأت بواكير الصباح الأولى غادرت فندقك الرخيص إلى ساحة (مأرب) .

كبيرا كنت وعودك لم يزل طريا . شددت ربطة عنق قديمة وارتديت البدلة التي انتقيتها من سوق الملابس المستعملة وتصورت نفسك رجلا. فهنيئا لك الصورة التي لم ترسخ لأكثر من ساعة كنت تظن أن من يلاقيك حينها يهابك وقارا ويجلك مهابة إلى أن كأن ما كأن

لك في الحافلة التي ارتقيتها. لغير ما سبب اخترتها من سبع حافلات يجثمن حينها في الساحة لتسلك طريقا واحدا بهدف واحد . كان الصباح ككل صباحات الأعياد ضاجا بكل جديد وغريب. الحافلة مكتظة بالركاب ومن مختلف الأعمار . والأجساد تلتصق ببعضها واللغط يعلو وعيناك تحتوي أكثر من صورة فاجرة قبل أن يحتويك موطئ صغير تغرس فيه قدميك .. وقد حصل وكان على سلم الحافلة ذات الطابقين. لم تثبت بعد في مكانك عندما صم سمعك صخب شتائم أعولت به امرأة على رأس رجل يحاذيك أدعت أنه تحرش بها وهي على سلم النزول قاصدة الترجل وقبل أن ترى المقصود وتعي صورته تلقفتك كف وانهالت الأخرى على وجهك بلكمتين لن تنساهما أيها الصابر المعذب الكبير الصغير أبد الدهر . لم تدافع عن نفسك وربطة عنقك المهانة ولم تتفوه بكلمة حينها إذ غلبتك المفاجأة والجمت الكلمات فمك فظللت في صمت مطبق ... حائرا خجلا كنت وتقريع امرأة بعمر امك يهز طبلتي إذنيك . كانت توبخك محزونة على ما أصابك . أنها جارتك في المكان وشاهدة لك وأن لم يدع سائق الحافلة لشاهد أن يدلي بشهادته ولا لمحام أن يدافع عن قضية خسرتها عنوة وبقانون العنف **الذي استوعبته في ذلك الحين .**

فقدت رجولتك وهكذا خيل لك فترجلت من الحافلة في أول موقف لتتحسس مكان اللكمات وتعود بك الذكرى القهقرى لثلاثة أعوام مضت عندما دخلت بغداد جاهلا للمرة الأولى في حياتك . تذكرت يا من يريد عبور الطفولة مبكرا ساعة قفزت من الحافلة إلى

الشارع قبل وصولها المحطة متشبها بالبغاددة ، حاولت التقليد عن غير قدرة فكانت حصيلتك من ذلك رضوضا وكدمات أدمت ساعديك وساقيك وتمزق قميص جديد يعلم الله كم عانيت قبل أن تحصل عليه . فماذا تذكر أيها الصابر المرهون بعذابه من بغداد والبغداديين؟! لقد ذقت طعم أول عنف طيلة عمرك فيها ، وفيها اكتشفت قانون القوة والتسيب قانون الغاب . فأف لك . لأي شيء تذكرها بعد ذاك ! وعلى أي شيء تحتفظ بصورها؟!. تلك كانت البداية وما تلاها كأن أشد مرارة . أجب أيها المراهق الذي عبر العشرين . ماذا تنتظر بعد ذلك وما كنت الآن ما كنته قبل خمسة عشر عاما مذ إذاقتك بغداد مرارة اللكمات الأولى في حياتك لتكيل لك بعدها المئات من اللكمات والإحباطات والانتهاكات . ظللت مصابا كما أنت الآن بالغثيان والدوار . كل ما حولك يقول لك أنك بين أناس مقرفين وما عليك إلا أن تجد لنفسك موطئا نظيفا بين أكوام القمامة المبعثرة. واسيت نفسك . صنتها عن كل ما يدنسها حتى كانت ليلة ١٠. ٤. ١٩٧٣م ليلة صرت على شفا حفرة من النار، أو سقطت فيها فتحملت وعانيت وكابرت لحد هذه الساعة التي انتضيت قلمك فيها وأنت تتذكرها بكل مرارة كي تعترف وليحدث بعد ذلك ما يحدث . وهكذا قررت .. ولأقل قررت . فهكذا أنا .. وهكذا كنت وهكذا أبقى كل يوم . لا جديد عندي ويبقى القديم على قدمه ثمينا فما كل ما يعرف يقال وما يسمع لا يكون بالضرورة خارجا من القلب ولا موجب لتصديق كل ما فيه .

أبدا .. ما أرغمت الساعة على التوقف بعد منتصف ليلة ١٠. ٤. ١٩٧٣م، لكنها شاءت ذلك. عقرباها اتفقا على أن لا يتحركا أو لا يلتقيا على الأقل ، كما اتفق لكف الرجل الأهوج أن تنهال على وجهي بلكمتين قبل سنين عديدة. وبين مطاردة كل عقرب لأخيه محاولا اللحاق به وبين بزوغ الفجر تبقت خمس ساعات طفتُ خلالها حول العالم. سافرت وناضلت وعدت إلى مستقري الليلي وحيدا أعزلا كعرجون قديم. أفهمت كل من حولي أنني لم افعلها وأن كدت. بلى.. كدت أزني بها. وفهم البعض أني زنيت. غفرانك اللهم وعسى أن لا تؤاخذني بجريمة ومعصية لم أرتكبها قط . فما كنته قبل إلا ما أنا عليه الآن .. وما أنا عليه الآن إلا ما سأكونه غدا. هذه هي الحقيقة كلها ولا حاجة لي لمحام يترافع عني. أنا محام لنفسي. وأنا الذي سأدافع عنها ضدها وأمامها ، ومن لديه اعتراض فليعترض ويحاجج نفسه ويحاسبها وأن كنت متيقنا أنه لن يستطيع الاعتراض أو يستسيغه على الأقل إذ كيف له أن يحول دون توقف الساعة لديّ بعد منتصف تلك الليلة الرعناء وينسى بنادق المتسللين الصهاينة وهي تجتث تحت سواد عباءتها الملطخة بكواكب الذلة ثلاث رؤوس ممن عقدنا عليها الآمال فتردي بهم وتحيل ليل بيروت وهدوءه إلى ضجيج وعنف ودماء . أنها منتصف ليلة ١٠. ١٩٧٣.٤م حيث توقفت عقارب الساعات هناك في بيروت كما توقفت هنا في بغداد حين ضمني وعفاف الزايد سرير واحد في شقتي الكائنة في الحي القديم وسط بغداد مدينة القدم والحداثة. سمّني أيها اللائم ما شئت فقد شئت لنفسي ما ارتأيت و(الصوت اللي برأسي لازم أصيحو) وسأقول بملء فمي : كدت

ولم افعل. وإذا أبيت إلا الاعتراف بما تتمنى أن تسمع ولا تعتقد سواه . فاسمع وبلّغ الجميع لقد فعلتها . وفعلتي هذه على ثقلها لدى السامع أخف وطأة من ترك أبواب بيروت مشرعة لدخول من يشاء بغية اقتناص ما يشتهي من ظبائها وذبح من يرى في وجوده خطرا عليه من سادتها. لقد فعلتها ويشهد الله أني لم ادفع بأحد إلى الخطيئة ولا كنت الآثم الوحيد . أنصفوني . أنا لا أبغي التملص من تهمة ألبست فيها . قطعا لا . فليس من شيمي أن أكون جبانا في المواقف الحاسمة ولا أريد أن يقال عني كان وحشا وثبت على وحشيته . أنا أعرف نفسي أكثر من سواي . أنا إنسان وسأحافظ على إنسانيتي . ما من أحد مسؤول عن أحد اليوم . (كل لشه تتعلگ من كراعها). تلك هي الحقيقة كلها. ومن شاء سوى ذلك فليضرب رأسه بأعلى مرتفع على وجه الأرض . ولتحل عليه اللعنة فيضاجع أمه واخته ومن شاء من محارمه . ليقتل أباه ويتآمر على مدينته فيفتح أبوابها لكل هجين ليس له وطن . وليقترف أكبر خطيئة يقشعر لها الزمان وتنكسف لها الشمس . أنا الذي طلب من الساعة أن لا تتوقف ، بل توسلت بها لكنها شاءت ولها ما تشاء . ما كنت أخاف أحدا بقدر ما كنت متطرفا بجنون ومحملا بعذابات كل نساء الشرق وخيبات ثورات شعوبه ، فعطفت على من عطفت وكابرت أمام من كابرت وأخيرا .. لا أقول أنهزم الإنسان في داخلي . بل أنتصر . أقول بكل ما أملك من عنفوان . انتصر الإنسان وإن كانت وسيلته حيوانية صرفة. سموني ما شئتم . لقد تعودت على أخذ ما أشعر أنه من حقي بكلتي يدي ضاربا عرض الحائط بكل القيم والمفاهيم والاعراف . وجاهل من يمنع

نفسه عما تشتهي أو يوقفها على حال واحد كجهل من يوقف عمره على امرأة واحدة . سأعترف .. وليعلم الجميع أني ما دعوته الليلة كما لم آتِ به ليلة ١٠.٤.١٩٧٣م . لكنه أتى فجأة . ظهر أمامي وبيني وبين الصدق أشبار. ولو لم يأت . لما دونت ما أدونه الآن . ولو لم يأت لصدقت مع نفسي فلحقت بالقادة الثلاثة وسواهم ممن أرداهم الغدر الصهيوني المتسربل بسراويل عربية . إن من أراد أن يكون صادقا عليه أن يكون ميتا فما يعني الصدق إلا الموت في هذا الزمن الخائب . ومجنون من يسمح لنفسه أن يقترب من الصدق قيد أنملة بعد الساعة حتى مع نفسه . هكذا صرت وبهذا آمنت وإن لم أكن كذلك من قبل وأن حاولت خرق طبيعتي في السفر إلى عالم الاجداث عن طريق أقرب محطة أو جبانة لتسفير الصادقين . نعم .. لقد ظهر (شريف) فجأة . ظهر دونما اتفاق مسبق . جاء وعلي أن أسمع منه . ولو أن قناعتي بثلثي حملة هذا الاسم على النقيض من معناه كسواهم من خلفاء الله على هذه الأرض[١] .

جاءني على غير موعد ليزيد آلامي آلاما ويوجعني فوق ما بي من وجع ...

ـ حتام تجهد نفسك يا صابر في قضايا لا ارى فيها ما ينفع او يغني عن جوع ؟. هل تراك أنت من مهد الطريق أمام الهجمة الصهيونية على بيروت وسواها من معاقل الثورة؟! ام أنت من دفع بقوات الردع التي ما دخلت الا لتردع اهل البلد الآمن المطمئن! ام أنت من اضاع قبل ذلك

---

(١) شريف هذا لا يحمل من معنى اسمه شيئا . اسميته على نقيض صفاته . وليس هذا بجديد عند العرب الذين يطلقون على الأعمى بصير واللديغ سليم وسوى ذلك ... عليه اقتضى التنويه .

فلسطين وسواها من ارض العرب؟؟ اجبني هداك الله أن كانت تلك همومك؟!... وأن شغلتك عفاف الزايد فما هي بالمرأة الوحيدة ولا أنت الرجل الفرد الصمد! أمن أجلها وما كانت بالعفيفة ولا الصادقة المخلصة تجر لنفسك ومحبيك كل هذه المتاعب؟. لا اكاد اصدق ما يجول بخاطري . تكلم وعسى أن لا تطبق جناحيك على ما تظن أنه مما لا يقال فتتكتم على سر تخشى البوح به حتى لي ؟! قل لي .. أرجوك . اكسر صمتك القاتل هذا . بلا... بنعم .. بما ترتأي . لن نضغط عليك . ولن نطلب منك ما لا تقوى عليه . حياتك وأنت حر فيها . كما تقول . ولنا أن نمد يد المساعدة أن احتجت . ومددناها وما ابطأنا. دفعت بنفسك إلى معترك لا يليق بك وما لمناك ولا احتلنا عليك . كنا معك واضحين وكنت مشوشا فعلى أي حائط تتكئ ؟ وبم تقارع ؟ ولأجل من تعاني . اجب .. أيها المثقل بهموم الغربة بين اهله وخلانه ؟.

- اتكئ على الماضي يا شريف. واقارع الغاصب والجاني والمتطاول، فأطلب السن بسنين . والعين بعينين ، وما غموضي إلا وضوح في نفسي . في ذاتي .. في كل ما أحب وأرغب . وهل الإنسان الا مجموعة رغبات ؟ أو (گروب رغبات) حلوة دي ؟ مش كده ؟ اگين..؟ آي آم فيري سوري ... و (إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم)

اشرب يا شريف . شاركني . نخبك . نخب الاسم الذي لا تحمل من معناه شيئا ، نخب فردان .. ودمشق .. وبغداد وكل المدن العربية المستباحة والتي في الطريق إلى ذلك . اشرب نخب المجانين العقلاء في هذا الزمن الخائب .

ودفع شريف كأسه إلى شفتيه .. وشرب ثم غنى . غنى للناس .. للحب .. للهوى ..

(يوم النوى هد حيلي يا رفاگه وداع

ومن السهر والبچي أضحن عيوني وداع)[١]

.... وقبل أن ينتهي مما بدأ به وكان صوته قد أخذ يعلو حتى غطى على صوت الشيخ أمام الذي كأن يبث من خلال آلة التسجيل الجاثمة بجانبي إحدى بكائياته عن (سجن القلعة) وما يعانيه نزلاؤه منفذو حكم الشعب بجلاد الثورة وجزار أيلول الأسود طاغية عمان من ويلات وآلام أطل علينا (غسان) بخلقه الرفيع . بهدوئه وثقل خطواته وبمعيته نديم سهرة قديم . حييت اللذين حلا ضيفين بلا دعوة وبالصورة التي سبقهما

([١]) يوم النوى هد حيلي يا رفاگة وداع

ومن السهر والبچي اضحن عيوني وداع

من يوم نادى المنادي بالرحيل وداع

هاجن جنوني على ربعي وخلأني

وشربت من عذبهم كاسات خلأني

آه من الشوگ باثنى حال خلأني

يا حسرتي ما شبعت من الصديج وداع

البيت (الزهيري) من شعر سليم العبدالله .. ورد في كتاب موّالات بغدادية لعامر رشيد السامرائي و(زهيريات) جمع د .عمر الطالب المنشور في مجلة التراث الشعبي البغدادية العدد الثالث السنة الثامنة ١٩٧٧م على أنه مجهول القائل ونسب إلى شاعره الاصلي في تصحيح لي نشر في نفس المجلة العدد السادس السنة الثامنة ١٩٧٧م ثم نشر في ديوانه المطبوع لاحقا .

بها شريف حتى خيل لي أنهم كانوا متفقين على هذه الزيارة ومبرمجين لها .
وأدرت الكأس مذ جلسا فتوقف عند (غسان) الذي يرفض معاقرة

الخمر . كان يريد أن يظل صاحيا في زمن ثمل بشيبه وشبابه . بنسائه ورجاله . بكل ما فيه حتى ... هل قلت نساءه ؟ أجل . تلك هي الحقيقة وتريد أن تظل يا استاذ (غسان) صاح ؟ ههههههه ها . قطع (غسان) قهقهاتي المفتعلة بعد أن فرك راحتيه ببعضهما كعادته وتحدث فقال :-

ـ كنا نزلاء أحد الاقسام الداخلية للطلبة المغتربين وكان من نزلائه طالبا اتخذت منه صديقا فيما بعد . كان يجيء آخر الليل ثملا يجر قدميه كرضيع يتعلم المشي لتوه متخذا سريره هدفا حتى إذا وصله القى بنفسه وكتبه عليه ثم نام . كنا نحاول مساعدته . وكان يذكرني بك- فنطلب منه أن يخفف بعضا من ملابسه أن لم يشأ ابدالها لينام مرتاحا، الا أنه كان يزمجر فينا وينفجر صائحا .. (ولويش هالاضطهاد) .

أنه يشعر أننا نضطهده ونحن الباحثين له عن غفوة طبيعية لا أكثر.

ـ الاضطهاد.. عميقة –قلت- هذه المفردة . فما رأيكم لو غدت محور حديثنا بعد أن ينتهي شريف مما بدأ به من مقامات قد نروّح فيها عما في أنفسنا من ضجر وفراغ ؟

ـ فكرة .. تلقف الحديث جليسنا الاخر(فايز) قائلا :- أستطيع التحدث لكم عن المقامات بكل ما فيها . ما لها وما عليها وما يصلح منها لمثل جلستنا وما يصلح لسواها فلندع الاضطهاد والمضطهدين ونخوض

غمار هذا البحر الواسع من الجمال ، ولم يكد ينهي حديثه حتى شد على يده شريف مؤيّدا . .

ـ خلونه من الاضطهاد والحرية والثورة ومن أفكاركم البايخة ـ وكانت الخمر قد لعبت برأسه اشرب واطرب.. واستغفر الرب.. و(.................)[١]

ثم قهقه عاليا وأردف:- إن أحلى المجالس أطربها وهل ترتاح النفوس لسوى الطرب ونحن نعيش في زمن المناحات ؟!. ابتسمت وقلت (فتاها ملا أدريس).. ثم تابعت.. تحدثوا بما ترتأون واتركوني لكأسي فأنا الآخر ارفض أن يضطهدني أحد. ضحكنا وعدنا ثانية لموضوع الاضطهاد، غير أن شريف الذي لم يرق له ذلك اشعل سيجارته وانبرى ليتحدث لنا عن شيء كما قال يروق للجميع ولا اعتراض لأحد عليه . سأجعله (حزورة) . قائلا :- (منو منكم يعرف عن إيش راح أحچي . إلهْ مني بوسه !)

ـ عاد أنت شلونك !.. ـ اجابه غسان ـ مع هذا أنا أعرف الشي اللي تريد تدوخ روسنا بي ،.. النسوان؟ مو بالله ؟. مبينه . أنت فد واحد نسوانجي .

وهنا أنبرى فايز وقد تلقف الحديث عجلا ملهوفا فقال :- فعلا.. هن هم الجميع . بالمناسبة .. شوكت أخ صابر تتزوج؟

ـ آني تزوجت من زمان ـ قلت ـ وإذا ساوركم الشك فاسألوا غسان . قاطعنا شريف . وقد نزل عن كرسيه وجلس على الأرض بعد أن جمع اذيال ثوبه في حضنه كاشفا عن ساقين بدتا كعودي قصب خالطاً هزله بجده :

---

(١) مفردة نابية

ـ خلونة بحديثنا (وخره بالحياة الزوجية) . اسألوني أني عن الزواج . مغثة ودين ووجع رأس . بس والله نعمه ، تنذكر بليالي شباط خاصة . قال ذلك غامزا بعينه غسان الذي اختار مرتين لأنه كأن يبحث عمن ترضى أن تكون له وحده . يقول أنه فقد الثقة بالنساء . بل يجزم أنه لا توجد امرأة الا وتحت إبطها ما لا يقل عن رجلين . لكنه يذكرهن بحرقة ويبدي شغفه بالطبطبة كما يحلو له أن يسميها على مؤخراتهن. وقد لاحظت عدم ارتياح غسان لحديث شريف فأشرت عليه بتغييره ..

ـ احكي لنا يا نقيض اسمه عن آخر جولاتك الليلية إذا كان لا بد من أحاديث النساء والليل.

ـ كان زوجها . قال شريف . خفيرا ليليا خارج مدينته وكانت تعيش لوحدها. تركت لي مفتاح البيت قبل حلول الظلام وبعد مطاردة عنيفة لها . عند منتصف الليل كان لي منها فراش لا أحلى منه، لكني تذكرت وأنا منها بمقام الرجل من المرأة بطرفة سمعتها من صابر فانتفضت عنها، ووليت هاربا من البيت . من الدفء على أن لا أعود لمثلها لا تعففا ولكن ... لا أدري ... سموها عقدا . لقد لاحقني صابر بعقده حتى بين أسرّة النساء .

ـ وما القصة الطرفة التي سمعتها عن صابر يا ترى . سأله فايز فأجاب:.

ـ شغف إعرابي بزوجة أحدهم ودار حولها حتى اخذ منها موعدا دخل فيه عليها في غفلة من زوجها فلما كان منها بمكان الرجل من المرأة نهض وشد سرواله عجلا. وحين سالته :- إلى اين أنت ذاهب ولم تقم بما

جازفت من أجله واتعبتني حتى خاطرت واتيت ؟؟ قال الاعرابي :- تذكرت قوله تعالى (جنة عرضها السماوات والأرض اعدت للمتقين) وعلمت أنه سيحرمني منها أن أتممت فعلتي . ووالله لن أرضى لنفسي أن أكون غبيا في علوم المساحة. فأبدل جنة بتلك السعة بمقدار أصبعين بين فخذي امرأة. فضحكنا جميعا ورفعت الكأس نخب الغباء الذي يحول دون وقوع الخطيئة.

الساعة اقتربت من منتصف الليل. فرصة سعيدة أن تلتقي بمن تحب وأنت في الوضع الذي تحب وتنقلب إلى سيئة ومقرفة إذا عشت في داخلك حتى تعذر عليك الانفتاح على من معك . ولي من الخطايا الكثيرة خطيئة سمجة حلوة تتمثل بجهلي لفنون المجاملة فلا أستطيع أن أكون إلا أنا لذلك لم يطل بجلاسي المقام إذ ما أن تخطت الساعة الحادية عشر ليلا حتى خرج شريف بعد أن سبقه غسان وصاحبه لأعود وحيدا أعاقر الخمر واستذكر أياما كنت فيها السيد وصرت مسودا . كنت أمدح في نفسي صمودها أمام الأزمات وبقاءها على القمة رغم معاناة الماضي. لم اذنب ولم أرتكب حماقة ما. ما كنت الأول ولن أكون الأخير. ما افتضضت بكارتها ولا دفعت بها إلى ما صارت إليه . إذ لم تكن من شيمي ولا مما أنادي به وإلا كنت فعلتها من قبل مع الأديبة عالية والشاعرة هدى والسياسية وداد والمحبة المتلهفة نجاح . لم أفعلها من قبل ولا فعلتها من بعد وإن شاء الزمن الخائب أن يلقي بي في مثل هذا الخضم فما أنا بالهارب من قدره . كنت الناصح والمرشد . كنت المحب والمعلم وكنت كل شيء إلا المجرم السارق ، وعمري ما مددت يدي لما ليس لي .

تعبت. بعت ورهنت . أستلفت الكثير حتى عجزت عن الايفاء لكني حافظت على مبدئي ونظافة صورتي وارتفاع صوتي طيلة العشرون سنة الماضية وحتى توقفت الساعة بعد انتصاف ليلة ١٠. ٤. ١٩٧٣م . ليلة أنزوى عقرب الدقائق رافضا اللحاق بعقرب الساعات مصرا على البقاء بعيدا عنه ليطعنا في سواد تلك الليلة المقرفة بيروت الأمل والمغني باسمها هنا في بغداد .. أنا .. صابر المرهون . لم أكن أدري أنني سأغدو بعد شهر واحد من ذلك التاريخ الأسود وبذات التوقيت الضحية لوحدي وأنا الذي ما انتهكت ولا أجرمت ولا فضضت باكرا ولا اغتصبت ثيبا حتى لو حقا زنيت بها . عليّ اللعنة . فعلتها في مخيلتي مذ أحسست أنها من حقي وأن للرجل المحق أن يأخذ ما يشتهيه ضاربا بكل قوانين الأرض والسماء عرض الحائط . هكذا تصورت وسأتكئ على الماضي بكل ثقلي واتآكل صمتا ، لكني سأبقى على القمة ما بقيت بيروت وما بقيت الثورة تنبض في عرق واحد من عروقي أو بيت من بيوت بيروت . أجل سأبقى . أنا من يقرر لا سواي . ولن أعير تشويه (سهى) لسمعتي . أنها لن تنال منها شيئا . ولها كل الحق فيما تبثه من افتراءات حولي . أما كنت من حرمها ممن تحب؟ أما كنت من وضع العصا في دواليب شهوتها ولن أقول حبها فعمر المرأة ما أحبت وهذه حقيقة وإن كانت ممزوجة بالمرارة . كل المدن تكبر وتشيخ الا أنت يا بيروت . تلاحقك الفتوة رغم تكالب الأشقاء والأعداء على ميادينك كما تلاحقني لعنات الزايد مع أي امرأة اختار . و(ريم) ؟ ما خطبها ومن تكون حتى تحول بيني وتطلعاتي ؟! أو تستطيع أن تقف دون فؤادي وتحاسبه وتحاججه وتعلمه الخطأ من الصواب ؟ حاشا.. وقطعا

لا ، وإلا استطاعت دمشق قص أجنحة المقاومة وتحجيمها . ما من مدينة طعنت أختها وظلت عزيزة ، ولا امرأة زنت وعادت شريفة حتى لو أجبرت على هذا الزنا . وريم زانية . زانية قولا وفعلا . ومن يريد استنطاق الحقيقة فليسأل التاجر الثري أبا جعفر . أنه أعرف الناس بتأوهاتها ساعة الشبق ! اسمها ريم، ووالله ما هي إلا بقرة خوارها يصم الأسماع . دعوها تتهمني بالتمرد أو الجنون والإلحاد وبكل ما يخطر في مخيلتها من اتهامات . ولتحاول دفع رأسي إلى حبل المشنقة فهي الأخرى (محقة) فيما تفعل. أما امتنعت عن مضاجعتها حين اشتهت ؟ أما تمردت على ما أرادت؟ ألم اظل بعيدا عن رضاب شفتيها وانفتاح وانطباق ساقيها؟ كيف إذن لا تحاول هدمي ؟ وكيف لا(تصنع من الحبة قبة) كما يقولون؟ لها كل الحق . ولأختها دمشق بعضه فهي الأخرى اطمأنت لحراب الجلادين كما انطوت ريم من قبل في لهاث العسكر المخنثين .

أذكر أني عاشرت مومسا حقبة من الزمن معاشرة صديق لصديق لا معاشرة رجل لامرأة. وأذكر أنها اشتهتني وتقربت إليّ وتوددت وحين عجزت عن الوصول معي إلى ما ترمي دعتني بصراحة إلى جسدها. (تتونس صابر!!) ضحكت حينها وأردفت متسائلا بـ نعم ؟؟ فأوضحت (ما....)؟ قلت لها .. لا . وكانت عفاف الزايد بيني وبين هذه الـ(لا) . فماذا كانت النتيجة ؟ تجاهلتني المومس (فادية) وأطبقت جناحيها على صمت ممض حتى إذا عصفت بي نار الشهوة بعدها وفي سورة من سور الجوع الجسدي أبت .. وكلما اقتربت منها ابتعدت ، ثم هجرت شقتي واختفت، حتى إذا ما جمعتني الصدفة واياها في شارع من شوارع بغداد، رافقتني

حين دعوتها وقطعت معي منتصف الطريق قبل أن تستغل غفلة ثوان لي عنها فتولي هاربة . وشاءت الأقدار أن ترمي بها في ليلة شتائية مثلجة إلى شقتي ثانية مترنحة يفيض الخمر من خياشيمها لأجول جولتي معها وقد غدت هدفا وهاجسا عذبا لي وكأنها لم تكن المومس الرخيصة . ها وقع الطير في الشبكة أخيرا . استقبلتها مرحبا مبتهجا بقدومها وحدثتها وحدثتني غير أن الخمر والنوم غلباها حين ارتمت على سرير فارغ منهكة فدنوت منها حين غفت واستلقيت بجانبها واحتضنتها فاستيقظت وتنهدت بعمق وألم، وما إن حاولت معها حتى استجابت . وما أوغلت إلا صدت وزمجرت. طفت براحتي فوق نهديها .. بين ساقيها .. قبلتها .. عضضتها. جردتها من جميع ملابسها . أخذتها بين ساعداي لكنها منعتني من الدخول بها . كررت المحاولة لمرتين قلت بعدها عد لسريرك يا صابر ففادية امرأة وإن ضاجعت عشرين رجلا في الساعة الواحدة تبقى امرأة ولا ولن تحتويك بين ذراعيها وأن تمنت واشتهت واحبت . إن لها كرامتها . أما تقدمت اليك ورفضتها ؟ دعها إذن لحالها وكن الرجل الذي رسمت له الصورة الحلوة المرة . وكنت الرجل الإنسان فأحسنت ضيافتها في الصباح واعتذرت لها وظلت المومس الرخيصة لكنها .. ظلت امرأة . وأهون على المرأة أن تقطع رأسها من أن تمتنع عليها ساعة ترغب . آه لو تفهمين يا بيروت تلك المعادلة التي علمتني إياها فادية .. فكيف بريم وعلام تلومها إذا حاولت هدك وتحطيمك وهي التي دعتك فما استجبت . أُفٍ لك من مدينة عاهرة . أما آن لك يا دمشق أن ترفعي يدك المجذومة عن بيروت وأخواتها ؟! تحدثت ونفسي بذلك وقلت سأبقى على القمة وأتآكل ولن

أغيّر نهجي وإن رووا عني غير ما بداخلي وغير ما تفوهت به ، وإن وصموني بوصمة عار وإن شوهوا الصدق في أصغري ، فعمر الأكاذيب ما صغّرت بيروت .. وأنا المغني باسمها هنا في بغداد لن أتزحزح عما دخل رأسي قيد أنملة ، فأنا (فد واحد رأسه ناشف) كما وصفتني ريم ساعة عصيتها وتمردت على شهوتها ، وستبقى عفاف الزايد الباب الأول الذي طرقته ودخلت منه بعد أن فتحته بيدي على مصراعيه ولن يهمني أن يدخله الف بعد ذلك خلفي ، أن لي فضل السبق والتقدم على سواي إن كان حقا قد احتواها أحد بعدي . وستبقى رغم كل ما قيل وكل من اتهمت به المتجردة الوحيدة في شعري رابعة العدوية ، شبابي وكل بهجتي . تبقى الغالية ويسقطون وترتفع وينحدرون وتسمو وبين هذه وتلك تآكل يا صابر . تآكل . كل لحمك وأدم خافقك وإيّاك إيّاك أن ترضى بسوى القمة فما خلقت إلا لك. وهل يستطيع رجل تجاوز مصيره أو التحايل على أجله لو جاء ؟ قطعا لا.. وهي مصيرك . إنها أجلك ولها وبها وبقرينتها أميرة المدن العربية توقف عقرب الساعات ليلة ١٠. ٤. ١٩٧٣م وعجز عقرب الدقائق عن اللحاق به فتسمر هو الآخر وظللتما أنت وهي ... كل في جهة ، وكل في بيت ، وكل في مدينة . وظللت ذلك الوفي لأناس ما وفوا . بل وفوا . وفوا وحال الخوف دون التصريح بهذا الوفاء . ورحم الله القائل : (قد تصد المرأة الرجل الذي تحبه وقلبها ينزف دما). وقد صدتك وقلبها ينزف دما حتى إذا فضح السر وشمت الشامتون ما اقسمت إلا بك . يكفيك هذا لأن تظل الرجل الملتزم وتظل هي الأمل المرتجى ويتساقط حول ضوءيكما كل التافهين والمزورين .. رشا - ريم . سها . جنان . دمشق . سرت -

سبأ . .. وكل شيء.. كل شيء . تآكل من أجل عينيها وابق على القمة فما سواك اهل لها وما أنت من يتسبب بوجعها . تحبك وتحبها ، تملأ عليها الحياة عقدا وآلاما وبهجة . أنها الحقيقة بكل ما فيها . لا تحاسب نفسك وإيّاك أن تحاسب ضميرك او تقبل بحسابه . فأنت أنت . ما سرقت ولا زنيت ولا فضضت باكرا ولا اغويت زوجة عن زوجها وما في الحب من عيب . الله. الله الله (عشئت وإلنه ما هو عيب ولا حرام) لمن يفهمون ويدركون ما هو عيب ولا حرام. اما المهزومين والمداهنين والمنافقين فعيب وجريمة لا تغتفر ، واهون منها كل جرائم الفصل العنصري الأمريكي ، ودونها جرائم دير ياسين وكفر قاسم وميسلون وحما . كيف لي أن أنساها واين اذهب بذكرياتي عن الصدر المرمر والعيون الغجرية والساقين العاجيين ؟! وكيف لي نسيان ضحكتها إذا ضحكت وغيضها وغضبها إذا اثيرت وغضبت ؟! أنها لك كل شيء يا ابن مرهون، ووالله أنت لها كل شيء فاستعن عليها بالهاتف ولتبق عفاف الحبيبة المرجوة لأيام الشدة. ولتعش بيروت المدينة المفتوحة لكل من لا مدينة له ولكل من غدرت به مدينته ونفته عن أرضها. أنت لكليهما الامل الذي لم ينطفئ والجرح الذي لن يندمل . اشرب نخبها وارفع كاسك في صحتها واعلم أنك والكأس وطيف عفاف وذكريات ما قبل ١٠. ٤. ١٩٧٣م على موعد للسهر حتى ينبثق النور . نور الصباح . نور الحقيقة والحرية ، أنتما معا وبيروت واخواتها ، والثورة ومن استشهد في ظلالها كل الحقيقة . أنتم جميعا .. أنت .. وهي.. والهم الفلسطيني المعرش في عينيك حقيقة واحدة ، ومخطئ أنت إذا تصورت الأمور ذات يوم على غير حقيقتها فكانت فلسطين حلما

.. والثورة سرابا .. وعشقها نزوة عابرة وشهوة صبيانية.. ورعشة ثم تنتهي . فما بالإمكان الاختيار في كل يوم ولا في كل عمر وإلا باعت بيروت نفسها لدمشق واختارت غير محبيها، وارتمت الثورة في أحضان السياسيين . لا . أنه اختيار واحد وقد اختارت وحين وقف السيف بينكما حدا فاصلا عجزت عن تجاوزه وعجزت عن عبوره فما في عبور حافات السيوف إلا دم يراق ودموع تتحدر . ولو كانت الأمور كما رسمتها لي ساعات جنون عابرة لتخليت عنها وطعنتها وكسرت كبرياءها فانتقمت لسنين عجاف مرت بي .. لكن .. (اللي يحب ما ينتقم) . كلماتها التي قذفتها بمرارة في وجهي وأنا وإياها على مفترق طريق لن ننساه ولن نلتقي بعده . وآمنت . كيف لمحب أن تطاوعه نفسه على الانتقام ؟ وممن ؟ من قلبه .. من هواه .. من وجعه وآلامه أم من آماله وأمانيه ؟ لا لن ينتقم . سيرضخ للضغوط وسيحملها وسيساوم حتى يبتز ويصالح أن اضطرته الظروف لذلك لكنه وبالتأكيد لن ينتقم ولن يتزحزح فالرجال موقف لا مواقف والمبدأ قبل الخبز وأن دعاك مبدؤك للحب فعش العمر كله حبا حتى لو دفع بك حبك للموت، فلا أهون من الموت على قلوب المحبين .

وقفوا في وجهها . أرهبوها . شوهوا سمعتها . بذلوا كل ما يستطاع من أجل كسرها . طوبى لك يا بيروت . حين احتدمت الأمور صمدت وقالت لك (البس) . كم هي قوية هذه المرأة وبأي شيء صارت إلى هذه القوة ؟ بالحب ولا شيء سواه . هو الذي املى عليها كل هذا العنفوان . أنه الحب ولن يختار المتوسط غير بيروت مرفأ ولن تتلاطم أمواجه بعد الروشة على صخرة جديدة مصطنعة . إنه الحب وما هو السحر ولا

التدجيل والضحك على الذقون . وله ولعينيها أديت فروض الطاعة كاملة فـ(لبست) و (لبست) لتتساقط كل اليراعات أمام الضوء الممتد من حقيقتينا. أمام فروض الحب وفروضه عجيبة لعل اهونها ما فلسفه أحدهم فقال :- أن تحب يعني أن تتدحرج إلى أسفل وباستمرار . وبرضى وقناعة تدحرجت. صرت سيزيف هذا العصر . الف مرة حملت صخرته وارتقيت إلى القمة لأتدحرج ثانية إلى الدرك الاسفل وتتدحرج فوق صدري صخرة الحب اللعينة واقبلها، اقبّلها برضى وقناعة حتى إذا حان الحصاد اعود بخفي حنين (وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا) . هذا هو الحب وتلك بعض معانيه أذكرها جيدا فأنا متمرس فيها كتمرسي في عوالم النساء والخمر الذي دفع بي إلى شلة من الذين ما استيقظت بعد غفوة طالت أو قصرت ومنذ ليال بعيدة إلا على طرقاتهم على باب شقتي في الحي القديم أعرف من خلالها أن أوان الخمر قد أزف وما على الرؤوس إلا أن تنصاع لتدور بها كما ستدور الساعة حيث أعلنت السادسة مساءً، وبدأ الليل من جديد كما كل ليلة مضت وبدأنا معه وصفّت الاقداح وافرغت القناني ودارت الرؤوس وتذاكرنا وتذكرنا وشدونا وصخبنا ثم ارتمى كل فرد من شلتنا في فراش خليلته وظل فراشي باردا خال إلا من طيفها منتظرا من لا تجيء أن تجيء. وهيهات هيهات أن تصدق الرؤيا. انتظرتها كثيرا . استلفت لأجلها حتى أغرقتني الديون وظللت وحيدا منجردا كالسيف . لم يتخل صديق لي عني، وإن تخليت عنهم لأني غدوت عاجزا عن إيفاءهم حقوقهم . ظللت وحيدا وقص جناحاي فحيل بيني وبين الفضاء الواسع الذي أحلم به ، بيني وبين قواعد الفدائيين الذين

انتميت لهم روحا وفكرا، وأن عجزت عن اللحاق بهم حيث يستقرون فشغلت نفسي بزيارات لمكاتب منظماتهم . عدت وحيدا إلا من بضع أصدقاء جدد لا أريد أن يكون لأحدهم علي منة ، ولا أريد منهم إلا منادمتهم إذا سكرت ومبادلتهم الرأي أن اضطربت أو قصرت يدي عن نيل بعض ما أريد إذ لم يعد في مقدوري إضافة هم جديد إلى همومي

ـ طيب.. أنت مو مواعدها يا... ... ...

ـ بلى . وعدتها بمبلغ استلفه لها حين عودتي غير أني قررت أن لا أفي هذه المرة. سأدفع إجازتي لأيام اخرى . (مو مستعجل) .. قد ألغيها فلا حاجة لي بها . كيف سأتمتع بها لو أخذتها ؟! من الذي سيفتح لي ذراعيه خلالها ؟. أرجوك يا محمد .. لا تدفع بي إلى ما لا أريد . لا وثيقة سفر عندي ، وبيروت لا تفتح لي ذراعيها ، ولا امرأة ترقب طريقي ، فعلام آخذ منك ما أنت أحوج إليه مني ؟!

ـ ستعيدها لي حين مجيئك يا عزيزي.

ـ ومن يضمن لقاءنا ثانية ؟ قد يحدث لأحدنا حادث ما .. من سيفي حينها لصاحبه؟ قراري اتخذته . لن أفي لها وأنتهى .

ـ بالله ، بربك واحد سواها !! شنو اللي راح يصير بهالفترة ؟! وافرض صار اسوأ ما تتوقع ، يعني راح تقوم القيامة ؟ لو تتصور الالف والالفين راح تضيع بيك؟. صدگ ..!! چذب ..!! أنت شتسولف ؟. تعتقد الإنسان بسهوله يلگه واحد مثلك حتى تحسب هالحسابات؟ وللمرة الالف اگولها : الروح هم قليلة بحقك وما تضيع بيك . صدگني . ما أجاملك ، وأنت خو تعرفني زين وتعرف رايي بيك وبغيرك .

ـ يضيع بي الدرهم والدينار أيها الطيب الذي لم ير مني ما خفي . إن ما أخفيه شتات وضلال وانتهاك محارم.

ـ يابه دگوم .. أنت اشو ما أدري شلون دتسولف ! هسه هي ظلت عليك ؟ على الأقل أنت بالقياس الغيرك چبير بحقيقتك . مو أنت اللي تگول سابقى الكبير الكبير؟؟ لعد وينك؟

ـ محمد . هذا حچي بطّاله ، والچذب مو بفلوس .

ـ لا لا.. لهنا وكافي . هذا هو الصدگ . وبحيل الله تبقى چبير ونشوفك بالصورة اللي نريدها الك .

واستلفت من محمد. أضفت قيدا اخرا كبلت به ما ظل طليقا من جسدي. قبل امس فقط عرضت مجموعة كتب لا املك سواها للبيع ولا مشتر لها . ههههه.. ههههه.. أعرض ستيان، شورت نسائي، قلم حمرة، فلاش لا ذر، اقراص منع الحمل .. تجد لها بالتأكيد سوقا رائجة. اما أن تعرض اكوام كوابيس مضببة تسميها كتبا.. فعلى من؟ من يشتري الجنون بالعقل .. والغنى بالإفلاس . من يشتري عقدك بانفتاح الاخرين؟ وهل من عاقل يرضى ابدال صالونات هلتون ومشارب شيراتون بمقهى حنون؟ تضحكني يا صابر . تتباله وتتغابى وأنت الذكي ، قم بنا إليها ففيها الدواء وإن كن منها كل دائك وإن كانت بعيدة . وأن نأت عنك وجادلتك وخاصمت . وخادعتك وزورت . قم إليها ففيها بعض ما يقربك من بيروت. اما أضاعتها من يدك وحالت بينك وقواعد ثوارها؟ اما أنقذتك من مأساة (فردأن) وما تلاها ؟! إنها دون سواها المشتهى الصعب الذي تملك الاستعداد لنحر نفسك على مذبحه . قم بنا إليها .. هيا ...

ولم يطل النزاع مع نفسي ، قمت دون تردد . سرت إليها وأنا أعلم أن الطريق الموصل إلى آل زايد لم يكن سهلا . أنه يزخر بالعثرات ، وبينك يا ابن مرهون وبينها الف شرطي يستعذبونك ويستلطفونك ويهللون لو جئتها بـ (روز رايز) لا حاف مثل متسول طريد جاهلين او متجاهلين من أنت ومن تكون . وماذا وأي شيء تريد . إلا أني تجاوزت كل الاعتبارات وانطلقت إليها . كنت اتخذت قراري بمفاجأتها في منزلها لو لم تتمايل أمامي (أحلام) التي عبرت العشرين لتوها برفقة صاحبي وليد . كادت هذه الـ (أحلام) أن تنسيني عفاف ، أنها أظرف منها وأحلى وما في القلب وحده الذي يرجح كفة عفاف عليها . لولاه لتضاءلت عفاف وضاعت في اتزان أحلام وجمالها لقد استوقفتني هذه الأحلام على حين غفلة مني فاستغل ذلك وليد هامسا في أذني .. وبصوت يكاد يكون مسموعا:

ـ مو گلتلك صابر، (مو كل مدعبل جوز)! شوفها . شوفها زين بربك . شلونها؟ أحلام ونعم الأحلام خفة وجمال وأدب.. وأكملت على الفور(يزينك يا هالبدوية) ثم اردفتها بضحكة مدوية . ضحك وليد كثيرا وغمز أحلام قائلا:

ـ لا يفارقه المزاح . ولو دخلت لقلبه لوجدته مثل .. مثل . ثم التفت الي .. مثل إيش صابر ؟

ـ مثل مبحاث التنور. -قلت- وضحكنا ثانية رغم سماجة النكتة وثقلها . وبلا أي تخطيط انضممت إليهما لنحل ضيوفا على جمع استقبلنا على غير موعد فسكرنا ولهونا حتى إذا أنتهى الجميع من شرابه ولهوه ، وحين آن أوان الشد قرعت بابها وقبل أن أصير شهريار لها صارت

شهرزادي وكل الحاضرين محض ندامى لنا. غنت وأنشدت الشعر وتمايلنا طربا وانتشاء . لك الله أيتها المدينة المتعبة . ها هم أحباؤك القدامى، أحباؤك المخلصون يذيبون متاعبهم ويذيبوك وهواهم فيك بكأس من العرق الرخيص . فما أن دارت الخمر في الرؤوس حتى ضاع أسمك وتلاشى من ذاكرة الجميع . كل الحاضرين وضعوك في غربال الذاكرة وضجوا هازجين:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس

... ويا زمان الوصل بالأندلس .. ها أنت تعيدني عكس سواي إلى بيروت ثانية، المدينة التي حملتها بين اضلاعي جبلا من هم وعشقتها جرحا في خاصرتي . نازفا ابدا. مشتعلا ابد . لقد أنسيتني يا زمان الوصل كل ما حولي الا بيروت وطيفها فقمت من فوري ...

ـ آسف جدا .. وليد . نسيت . أنا على موعد .. وأنت خو تعرف ذلك . معذرة أحلام . معذرة سنلتقي مرة اخرى . أليس كذلك ؟ اعذروني يا جماعة.. إلى الملتقى .وخرجنا معا لنفترق على خطوات . وبمجرد أن لاح لي هاتف عمومي قررت الاتصال بعفاف .

ـ هلو عفاف ؟. وداهمتني فجأة نزعة عدوانية اتجاهها

ـ هلو.. صابر ؟!! أي جنون دفعك لاتصالك هذا ؟ وفي مثل هذه الساعة؟!

ـ عفاف .. .ودون أن اتخلى عن عدوانيتي . اين فلان؟ (زوجها).

ـ نائم . ماذا دهاك ؟ تكلم بسرعة . أرجوك يا صابر

ـ حسنا .. ستسمعين مني ما لا تتوقعين .

راودني إحساس غريب . إحساس من يوشك أن يضع عنه جبل هم ثقيل ينوء به .. إحساس بين الحقد والانتقام والتشفي . بين المرارة والسادية .. خليط من أفكار غريبة لم آلفها من قبل . ولا أدري كيف هبطت علي مرة واحدة قلت : اسمعيني عفاف كان بودي لو أنك معي الآن . لتذهب إلى الجحيم كل القيود التي تشدني اليك . أحلام التي تتضاءلين أمامها حد الضياع . أحلام التي تسمو عليك كسمو السماء عن الأرض . أحلام هذه يا ست عفاف سوف أتزوج بها قريبا ،.. لولا.. . وقلتها . . علي اللعنة . كيف قلتها ؟ كيف نسيت كل الكلام الذي أثقل رأسي غير كلمة واحدة لم أكن أدري كيف نطق بها فمي .. لولا أني احبك . كانت الكلمة مرتجفة على شفاهي . شعور بالعدمية انتابني لم يقطعه إلا صوت عفاف متنهدة وهي تقول:

- شكرا جزيلا .

اسقط في يدي . بماذا تفوهت ؟ لا أدري . ولم أجد أمامي غير أن أنهي المكالمة

- تصبحين على الخير

- وأنت من أهله

انقطع حبل الوصل الذي امتد لي عبر النهر الخالد من الضفة الأخرى . وانتهت أحلام كما انتهت أحلام الأولى وخولة وسعاد وعالية وهدى وخلود .. خلود !! إن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا . وقد ضحكت خلود أخيرا. هنيئا لها. تزوجت وأنجبت وبنت واستقرت.. تزوجت بأبله لو داهمها بين عشرة رجال على فراش واحد، لأقنعته بأنها كانت تؤمهم

للصلاة. ولصدق ادعائها، وابتهل لله كي يستجيب لها ويتقبل عبادتها . تخلصت مني وكان بودها لو شدت الي شدا . هجرتني مكرهة لا مختارة . لقد اكرهتها على أن تتركني (لأني ما بي خير). وأحسب بل أكاد أجزم أنها ارتاحت . وبالمناسبة: هذا إيضاح لمن يهمه الامر . إيضاح رقم مليون . صادر عني أنا العبد الفقير صابر المرهون .. أقسم لكم أني عاشرت عشرات النساء . لكني ما فارقت امرأة عاشرتها أو فارقتني . أيا كان نوع المعاشرة . إلا طلبت منها أن ترتاح وتنسى . هذا شأني مع جميع من عرفت من النساء ، إلا مع عفاف الزايد . الوحيدة التي اشتعل لها الرأس شيبا . عفاف التي دفعتني إلى صحاري الشيخوخة قبل الأوان (أنتهى) .

كنا في طفولتنا نسمع عن الحب أنه أعمى . وكنت ممن يصدقون ما يسمعون لولا أني اكتشفت أن له الف زوج من العيون رأيتها جميعها في عيون الغالية عفاف التي شغل أمري وإياها كل محب فكثرت النصائح وفاضت الإرشادات...

- إذا كنت لا تستطيع الزواج بها فعليك بمعاشرتها معاشرة الأزواج.

- اغتصاب؟؟ وماذا جنت دمشق من اغتصابها لبيروت..؟!

- ستنساها حتما لو فعلتها ...

- وهل نست دمشق بيروت أو تخلت عنها .. أم امتدت ذراعها لتطال شقيقات أخريات لها ؟.

قلت ذلك .. وعقبت .. لكني سأفعلها . وسأنزل عند نصائح من نصح ولو مرة واحدة عسى أن لا أندم ، سأفعلها . وفعلتها ، أو هكذا خيل إلي ..

قفزت فوق مبادئي وارتكبت جريمة وطئها وهي الصديقة الحبيبة الزوجة التي استؤمنت عليها . لم أرغمها على ذلك . بل أنا الذي أرغم عليه و(آخر الدواء الكي). كويت لحمي . شويته . أحرقته حتى تفحم ، وزنيت بها . اغفر لي يا إلهي . اغفري يا سماء . لقد فعلت ما كنت أفعله مع أي امرأة تعذبني وأبغي نسيانها ، أهنتها. ضربتها . دست عليها ولم أنسها . بل لا أطيق الهمس لنفسي بنسيانها . كانت أبرد جميع اللواتي عاشرت جسدا، واصعبهن عريكة . لم تشتعل بين يدي كما اشتعل جسد سواها . لم تحترق كما أردت لها لكنها أحرقتني وولت . وها أنا أحمل لعنتها في داخلي. لعنتها التي تنضح من كل مسامات جلدي . لعنتها التي تتفجر في عيوني وفي رأسي المضرج بالحمى، لكني سأحاول أن أبقى على القمة رغم التوحد والكأس بعيدا عن كل ما من شأنه أن يصلني بعالم تغتصب فيها العواصم تحت ظلال السيوف المثلمة التي لا تنتضى إلا على أبناء العمومة . وتكبر فيه المدينة حتى تشيخ ولا تنسى مراهقتها. وسأعض بنواجذي على عالم اخر، عالم قد أجد فيه بعض الطهر . عالم الأضرحة والقديسين . أنه يذكرني بشهداء فردان وبالليلة المشؤومة التي أضعت فيها من أرقتني كل هذا العمر . لقد أحببت هذا العالم فولجت إليه وطفت بين معالمه مستمتعا باسترجاع ذكر الخالدين من الشهداء باحثا بين صفوف الزائرات عن شبيهة لعفاف الزايد المرأة التي شغلتني عن نفسي . لقد فتشت عنها قبل ذلك في الأسواق . في أروقة الجامعات . في دور البغايا وفي كل مجلس أو مكان قد تدخله امرأة إلا أني لم أجد لها أثرا. لم أجد شبيهة لها . بشذوذها . بجنونها . فقلت لنفسي : عليك

بالمراقد يا صابر وأضرحة الصالحين ما دمت قد غرست قدميك في هذا العالم . إن من عرف شطحات عفاف لن يفاجأ لو وجدها متبتلة إلى جوار قبر نبي أو ضريح ولي ...

وتعبت . لم ألق لها أثرا . أضناني البحث ومن خلاله أدمنت زيارة تلك المراقد التي ما عدت من زيارة أحدها إلا وكان رأسي مكتظا بصور وأفكار لا أول لها ولا آخر، ولعل أقربها إلى نفسي ما كان يدور منها حول الموت . هذا الذي عجزت عن اتخاذ موقف بشأنه ، فتارة أصير إليه أقرب من حبل الوريد . وتارة أنأى عنه حتى استثقل كل من يورد ذكره على سمعي . هذا المرفأ الغريب الذي تأرجحت بين الميل عنه والميل إليه لأكثر من عشر سنين دفعت خلالها الكثير من صمتي وصحتي ومعتقداتي . عدت إليه من زيارة لأحد الأضرحة طمعا بزيارة لها إيّاي في مرقدي ... لكني لن أدع لي مرقدا أو حتى ذكرا...

أنا صابر المرهون لم أتزوج ولم أنجب .. ولم أبنِ ولم أشيد فما عليّ إذن إلا الرحيل . سأحزم أمتعتي وأحتضن صورتها ، وأودع آخر جميلة تتمايل على شواطئ النهر الخالد وليكن بعد ذللك الطوفان ....

ــــ

(آخر ما قاله صابر المرهون كما روته عفاف الزايد ولا أحد يدري كيف وصل لها)

السلام عليك يا عفاف الزايد ظالمة أو مظلومة .

السلام عليكن يا كل النساء اللواتي عرفتهن بغايا أو قديسات..

السلام عليكم يا أحبتي وأصدقائي...

ليس عندي ما أتركه لكم غير هذا السلام ...
لا أطلب من أحد منكم شيئا إلا أن تترحموا على روحي وتقرأوا الفاتحة لي .. ولشهداء فردان .. ولكل من أحب فعف فمات ...

القسم الثاني

عفاف تعيش حاضرها

وتذكر الماضي

وتحلم بالانتقام

كم أوجعني هذا الرجل ..! وكم يوجعني

ماذا أذكر منه .. وبماذا اتحدث عنه ؟!

هل أنني كنت أحبه حقا ؟ وهل أبغضه الآن بقدر ما كنت أحبه ؟ من لي بإيصالي إليه ؟ وكيف له الوصول إلي ؟. من أين أبدأ وكل البدايات غدت مغلقة . وكل المسالك الموصلة إليه أو الواصلة بيننا سدت بمتاريس لا حصر لها من الشك والهموم والافتراءات والتزوير ؟

كل من كان لي غدا عليّ .. وكل من غدا عليّ دست على كبريائي وصدقي وحاولت أن أغدو له .. إلا هو . أنه الوحيد الذي طعنته وتشبث بي . قدم لي سكينه بيده لأزيد من طعناتي إيّاه وما اكتفى ، ولا أخجلني حين أرفقها بقفاز يحول بين السكين وبصمات أصابعي لئلا أدان بدليل اقتراف جريمتي . طوبى لهذا الوحيد الذي نذر نفسه لراحتي وأوقفت نفسي على الغدر به .

من أنا.. ومن هو ؟ ومن أين ابدأ ؟؟؟!

ـ (إن هذا لا يعنيني). كان بودي لو قلتها له قبل سنين عديدة حين أنفرد بي عن زوجي الذي لم أكن أحبه ليحدثني عن مشاغل تشغله وقطيعة أوجعته مع أحباء له. أحرجني حينها ، ووبخني زوجي على انفرادي به لساعة كان يكلمني فيها عن أمور ليس لي فيها ناقة ولا جمل، ولم أكن لأستطيع ايقافه عن حديثه . كنت احترمه جدا وأخشاه أحيانا رغم أن لا

سلطة له علي . بل لماذا لا أقول الحقيقة كلها ؟. لقد فرض عليّ نفسه . بتفتحه .. بقوة شخصيته على صغر سنه وقلة تجاربه لذلك جاريته. وتحملت ثورة حفيظة زوجي حينها وخبأتها عنه حتى لا يقول أنها أرادت بذلك صدي ، ولو أني قلتها له بعد سنين من الحدث . قلتها له بعد أن غدا لي كل شيء ، وأعترف الآن أنه ما زال لي كل شيء.

هذا الولد المحيّر .. ماذا يريد مني ؟ وماذا أريد منه .. وبيننا يقف سد لا نطاله ولو طاولنا ! كثرت لنا زياراته وبدأت أفتقده وأحن إليه وأسأل عنه لو تأخر أو انقطعت أخباره ... كنت قرأت فيما قرأت أن أقرب الطرق إلى الرجل معدته وصدقت ذلك ، فدعوته بحضور زوجي لتناول الغداء معنا بعد غد حين صادفناه في طريق ما . أعرف عنه شغفه بالأكلات الشعبية ولعل ذلك عائد لحنينه إلى أهله وبلدته التي فارقها من سنين عاش فيها وما زال كما هو ، بدويا غريبا في بغداد تتلقفه الفنادق والشقق والغرف السرية . صببت كل ما لدي من مهارة في الطهي واستشرت جل صاحباتي عما يضاف من مطيبات حتى هيأت له ألذ وجبة غذاء طهوتها في حياتي ، وحين قدمتها له عند حضوره دون أن اضع إلى جانبها سوى قدح الشاي وعلبة سكائر علق طعمها في فيه وعلق هو في سنارتي بعد أكله الطعم . ألم أقل له حينها (هذي أكلة ما صايرة . سويتهه مخصوص الك . بس دير بالك لا تأكل أصابعك من وراها !.. ترى آني ما مسؤولة !!) وأردفتها بضحكة غنج لم يحلم بها يوما زوجي الذي دخل بي منذ خمس سنين . وصلت إليه ، وصدقت النبوءة . كم أنا فارغة إذن! أسرته بوجبة غذاء وعلبة سكائر وبضع كلمات منمقة . هكذا كنت أظن

!! لا والله . بل العكس هو الصحيح . أنا ممتلئة ولست فارغة، أحببته فقدمت له ألذ ما يحب . أحتاج إليه في أشياء كثيرة ، وكل ما أطلبه منه يجيئني في الحال ، وليس لدي ما أقدمه له حتى الحب . كنت أخشى وأخجل من البوح به إليه فأردت رد جميله واخترت طريق معدته فهو أسهل الطرق وأرخصها وأكثرها بقاءً لدى الرجال كما يقولون . دخلت ذلك الدرب الشائك .. وأوغلت فيه . أنا عفاف الزايد . أقر وأعترف أني وقعت في هوى صابر المرهون وعليّ أن أتخذ موقفا واضحا، فهو الذي علمني على صغر سنه بالنسبة لي أن الإنسان ليس إلا موقف ومبدأ ، لكني لا أنسى أني زوجة وأم لطفلين . قررت طي ما أحمله بداخلي إلا أن من أوجد الحب أبى إلا أن يتم نوره ويشعلني بناره، وقد أتمه فعلا حين اختلف زوجي مع أهله واتخذ قرارا بالسكن بعيدا عنهم . بحثنا عن بيت . مشتمل . شقة نسكنها، أعيتنا الحيلة فقررت اختبار حب صابر لي بطلبي منه التنازل لي عن شقته ووافق، وتراجعنا عن الطلب بعد أن لعب الحظ معنا لعبته من جديد . لقد عثر زوجي على سكن قريب من سكن صابر المرهون . كان هذا الرجل الأعزب ، الفتى المشتعل رجولة أقرب جار لنا في سكننا الجديد . ألم أقل لكم أنه الحظ العاثر ولا شيء غير الحظ .. الحق أقول لكم .. لقد خشيت ذلك الجوار بقدر فرحي فيه وأن لم أظهره . غدا صابر قريبا مني وستكون كل كتبه ومطالعاته وأفكاره بين يدي . صرت صديقته الأثيرة وأكثر من صديقة. أذكر أني قرأت في كتاب استعرته منه هامشا بخط يده قال فيه : على من يود قراءة هذا الكتاب أن يضع عشر علب للسكائر وعود ثقاب واحد بجانبه فهو بعد اشعاله

السيجارة الأولى لن يحتاج إلى إطفائها لحين انتهائه من الكتاب . كم علبة سكائر أحتاج الآن وأنا استذكر ذلك الماضي المزدهر بكل الخير المشبع بألف وجع، لا أحلى منه ولا أعذب !

كبير أنت يا صابر في كل ما تفكر وتقول وتعمل . ليتني انصرفت انصرافك للتدخين ، إذن لساعدتني سكائري الآن على إحضار الماضي . يا كل الحاضر والماضي .. يا أنت.. يا كل العمر. لولاك لأشعلت الآن سكائري من جذوة تتأجج في فؤادي لكنك منعتني عن ذلك . كنت أمازحه في يوم ما، فأشعلت سيكارة من علبته، وكان يحلو لي أن أمارس أي عمل يؤدّيه ، وأن أكون قريبة منه ومن كل خصوصياته حتى سجائره . فنهاني عن التدخين بطرفة ظريفة ذكية لن أذكرها وأن ضحكت لها حينها واطفأت سيكارتي وأقسمت أن لا أعود لها . و... اوووف .. التلفون . التلفون !! بماذا يريد أن يعدني هذا الجهاز الأحمق، وما في الحاضر إلا النتانة وما في المستقبل إلا الغشاوة التي تعمي الأبصار . الله يا نقاوة الماضي :.

ـ نعم

ـ ... ...

ـ منو ..! ... أم حسين

ـ يا هلا .. شلونچ .. شلونچ بعد

ـ... ... ...

ـ آسفة . أني؟ دا اعيش بالماضي.

ـ ... ...

ـ لا والله .. ما أگدر .. مشغولة

-... ... ...

-زين . الله كريم .. خابريني بعدين دانشوف

-... ... ...

- مع السلامة

اتركوا عفاف لماضيها ..(مريم نائمة من فرط الحب) بيت من جملة أبيات شعرية كان صابر يرددها أمامي . مريم نائمة وعفاف التي يريدون لها أن تغدو أجيرة بإتكيت رسمي تأبى . أجل أنا أرفض ذلك . أنا الأخرى ما أزال غارقة في بحر الحب . سأصده حتما لو اتصل بي . لن التقي به ثانية. لكن هذا لا يعني أني لا أحبه ، على العكس . (قد تصد المرأة الرجل الذي تحب وقلبها يقطر دما). بعض ما حفظته عنه . وهكذا أنا . سأصده دائما وليقطر قلبي دما وصديدا وقيحا أسود فأنا لا أستحقه. وأن قلت له أني كثيرة عليك . الحقيقة تبقى داخلي . أنا كاذبة ومضطرة لأن أكون كاذبة . أنا أعبده . وهو الكثير عليّ لكني لن اصرّح له بذلك ولن المّح . سأحتفظ بحبه سرا يشتعل في كل جوارحي . لن أعلنه ثانية بين يديه فأنا ما أزال دونه مستواه فكرا والتزاما وإشراقا ، أنه صابر المرهون وكفى . ومن هيامي به بكيته واستنجدت بصديقتي لميس ، وكان ذلك قبل ثماني سنين من اليوم ..

- الحگيلي لچ لميس

- شبيچ عيني عفاف

- اليوم أنكسر ظهري .. اهون علي لو ميته .. اليوم ...

- خيرچ .. لچ راح تخبليني إحچي

ـ شأحچي ؟؟.. صابر اخذوه عسكر

ـ وشدعوه ..؟ هبطتيني ، عبالي صاير عليچ .. على وميض فد شي ..؟

ولا أذكر بعد ذلك إلا أني ممددة على سريري وحولي كل أهلي وزوجي وصديقتي لميس لأعيش أسوأ أسبوع في حياتي قبل أن يحل علي الترياق الشافي متمثلا ببرقية جاءت بها صديقتي وداد، وكنت قد اعطيت عنوانها لصابر قبل سفره . برقية من صابر ؟!! يا لسعادتي . طرت فرحا وفتشت خلال أسطرها القليلة عن عنوانه فلم أجده

ـ يگولون المعسكرات يخلون عليها رقم (١٩٨٣) مثلا. ـ قالت وداد وهي ترتجف لارتجافي ـ

وفتشت عن رقم معسكره ثانية فلم أجد سوى موقع المعسكر(تل المردة) وحسب. إذن هذا هو رقم وحدته العسكرية . وأشرت إلى رقم صادر البرقية. وافقتني وداد في الحال . ومن فراشي إلى دائرة البريد لأرسل له رسالة ببرقية ضخخت خلالها كل معاناتي واشتياقي، وكأني لم أره منذ أعوام لا بضع أيام وحسب . وأدرجت رقم صادر البرقية على أنه رقم معسكره في تل المردة وأعطيتها لعاملة البريد التي ضحكت حين قرأتها وأردفت .. (هنياله .. شگد تحبيه ؟!). قلت لها على الفور(أنه عمي) ، وكذبت . كانت الكذبة الأولى . لم أقل عنه زوجي وأنا متزوجة. سميته عمي . وأذكر أني كتبت له في الرسالة البرقية التي لن تصل أن وميض يسأل عن عمو باستمرار . وكنت صادقة في ذلك فعمر وميض الذي تجاوز الثالثة آنذاك ما أحبني بقدر حبه لصابر المرهون . أنا احتفظ بكل ما كتبته له حينها في ذاكرتي كما احتفظ الآن في زاوية من خزانتي بالبرقية

التي وصلتني من تل المردة . اردت أن أقول له قبل سفره أنك لا تعرف الحب والا ما كنت تركتني وحيدة بين أناس لا أحبهم ، وخجلت من أن أقول . وخفت عليه من عواقبها . لأقل أنني خفت على نفسي فأجهشت بالبكاء قائلة :. (الله يظلم اللي ظلموني) . لم يفهم شيئا ، وفهم كل شيء فاطرق صامتا وخرج . ناديته واعطيته تسجيلا لأغنية اقسمت عليه أن لا يسمعها الا هناك في غربته .

ماذا اهديته وهو على اهبة الرحيل؟! كم ترأني غبية حين حملته آنذاك بأغنية (أنت فين والحب فين) ليعيده الآن وبعد كل السنين التي مضت جديدا مغلفا بأقصى الأناقة. لقد انقلبت الصورة وحق عليّ أن اعترف بزيفي وصدقه . أنا فين والحب فين ؟! لقد اشتهيت وارتويت فخنت . واحب واخلص فوفى ، ولا غرابة في ذلك . فالوفاء دينه وأنا أعرفه جيدا . أنه عمي .. وإن كان يصغرني ببضع سنين . وهل يمنع هذا من أن اسميه باسمه الحقيقي !! عمي صابر . ليتك يا عماه كنت عما حقيقيا كما اتمنى ، إذن لازدهرت في أحضان زوجي ولنما عن ازدهارك في أحضان سواي غلام يحمل سيماك لو كان ذلك لأدخلته شغاف قلبي . ألم أوصه بطفلي وأنا على فراش المرض الذي ما عرفته إلا بعد أن دخلت دهاليز عشقه :. (عليك الله صابر لا تتزوج إلا وحده تحب وميض . أني راح أموت وأعوف وميض بين اديك امانة . صير إلهْ بدالي أم . عمو وحدها ما تكفي) . يا لها من مهزلة . كبر وميض وغدا فتى ، وظل صابر كما كان طفلا محملا بهموم الرجال وانقلبت إلى مراهقة بعد أن وقفت على مشارف الاربعين فنسيت صابر وأحزانه . انقلبت إلى امرأة رخيصة ،

مومس ولا كمومس السياب العمياء عذرها البحث عن لقمة تسد بها رمقها وعذري الفرار من صابر .. وإلى اين ؟ إلى أحضان الرجال الملهوفين لجسدي الغض الممتلئ الذي لن أعرف قيمته الا بين ساعدي صابر المرهون الذي قال في سورة غضب عارم وقبل القطيعة التي حلت بيننا .. عمر المرأة ما احبت . أوافق الآن على ما قال . لو أنني احببته ما تركته بعد أن مر بعرباته على جسدي . لكن .. ما باليد حيلة . ترى هل أنني لم أعد أحبه حقا ؟ وإذا كان ذلك قد حصل فماذا أسمي تعلقي به الآن ومنذ ثلاث لم أره فيها ؟ ثلاث سنين طويلة مرة . بماذا أسمي كل هذه الهواجس .. الشتات .. الضياع الذي أحياه ؟ بماذا أسمي ارتمائي بين سواعد رجال أغراب باحثة عن خياله هاربة منه مستجيرة من رمضائه بنيران سواه ؟!. ليتك احرقتني يا صابر في رمضائك فـ (زوان الأهل ولا حنطة الغريب). وصابر حنطة لا (زوان). حنطة فيها كل الخير . ويكفيني أنه عمي . الم أقل لعاملة البريد أنه عمي ؟ بلى والله . أنه كذلك .. صابر المرهون .. وعفاف الزايد المرهون ..(واللي ما يعجبه يضرب رأسه بالحايط)

- صدگ أنت تحيرين .. شدتسولفين ويه نفسچ ؟!

- عشت أحلى أيامي وياه

- وشتشوفين .. أكو نتيجة ؟!

- هذا اللي معذبني

- لعد اتركيه يا عيني ، فدوة اروح الچ . أنت وردة .. وكل الرياجيل تتمناچ ، ومتزوجة فوگاهه .. همداه لحظي ...

- شسوي .. دبريني ؟!

ـ هاي هيه .. ماكو غيرها .. تدوسين على گلبچ وتتركي . تنسي وكأنه ما موجود.

ـ بس . شاگول ! شاعتذر ! تصدگين .. صرف علي بگد شعر رأسي . ويوم چان الدينار يسوة مية .. مو ها اليوم اللي صار بي الدينار بفلسين ونص

ـ قابل بلاش..؟!

ـ لعد شنو يابه ؟ چنت ابيع إلهْ نفسي ؟.. أني هوايه اشكرچ لميس .

ـ لا عيني . لا تفهميني غلط . بس اگول .. يعني .. اللي يحب يعطي

ـ صدگ اللي يحب يعطي . خلصت الكلية بتشجيع منّهْ ، وباقناعه لأبو وميض دخلتها ، وبمتابعته إلي تخرجت . ومثل ما تشوفين .. هسه آني مدرسة . يعني لو أعوفه چان يگول عني .. أقل ما يگول .. مصلحيه . خلصت شغلاتهه برأسي وعافتني

ـ ميخالف .. بس تگدرين ...

ـ عيني لا بس ولا تگدرين . أني مدرّسة واستلم راتبي واسلمه لأبو وميض. وهو؟! يا عيني عليه . يومية موديني لمدرستي بتكسي ، مرجعني بتكسي والله فلس واحد آني ما صارفة من جيبي وهو وياي تدرين شگد كريم . برمكي . أريحي ما ينلحگ . تصدگين من يمشي وياي أحس آني ملكه؟! چان عود أبو وميض لما خطبني يگلي :. والله لسويچ ملكه . وتاإليها...

ـ تاليها شنو ؟ قصر وياچ أبو وميض يا عفاف ؟ خلّي الله بين عيونچ من تحچين

ـ لا. بس صرت ملكة على ايدين صابر . وعلى ايدين أبو وميض !!! يا ريت ينقري اللي بالگلب ؟!!

_ثخنتيها أنت هواي ؛ تدرين ؟!! صدگ لو گالوا (الشاذي بعين امه غزال).

ـ ما اسمحلچ . لا لميس . ما توقعتها منچ

ـ العفو عيني . نسيت أنت شاعرة وعاشگة ...

ـ بس ارجوچ . أني لا شاعرة ولا عاشگه .

ـ لا تاخذين على خاطرچ عيني عفوفه . أنت تحبين الشعر والشعراء يگولون ...

ـ شيگولون يابه ؟ وأنت شمفهمچ بالشعر ؟؟

ـ على كيفچ . ها لمرة آني وياچ . صدگ لو گالوا

ـ ما تفضيني فدوه .. شگالوا ؟

ـ أخاف هم تزعلين وتسويها علينه عنجليه

ـ ما ازعل . بس احچي . خلصيني عاد ، مو ...

ـ زين يابه . اسمعي . (وعين الرضا عن كل عيب كليلة).. و(صفنت).

لم أرد على ما قالت . كان يمازحني عندما يأخذني الصمت واتيه في مضاربه فيقول :. (الصفنة مو الچ الصفنة لأبو...) ويضحك وأضحك وأنسى ما كنت فيه لأعود إليه ثانية بعد أن نسيت لميس وحديثها وحديثي معها عنه وعدت إليه (ما أحلى الرجوع إليه) .. لعذاباته.. أنه نهر عذابي العذب . أنا لا أستحقه. أعترف بذلك . سأصر على هجره لكني لن أنساه . سأعيش لحاضري ولكني سأستذكر الماضي واتذكره . ترى هل يعود الذي

فقدته ؟! هل أستطيع العودة ثانية لأحضان صابر وقد اكتشف زيفي وأكاذيبي وارتمائي في أحضان المليونير أبو جعفر حتى وإن كنت مضطرة لا راغبة ؟! ليت لهذا البدوي أن يغفر . إذن لعدت إليه . أبداً . لا (شچم دوب يغفر) ! لقد غفر لي كثيرا وزدته ألما على ألم . كافي . (عليش مدوخة نفسي خلي اشوف أم حسين. شعدهه؟). وعلام أراها ؟؟ أنها ستعاود الاتصال بي قاصدة بيعي لرجل جديد . أنها تريدني أجيرة ، وأنا من خدعت الكثيرين لن اخدع ببهلوانياتها . لن أدع نفسي لمن تشتهي أم حسين . بل لمن أشتهي أنا . لست عاجزة عن صيد أي من الرجال . أما دفع جمالي بابي أشواق إلى مد سجاد الخير أمامي مقابل نهدين وساقين . فليكن ما يكن .. ولأوهم الناس بسلوكي وخلقي . وألعب لعبتي مع من أرغب وعلى انفراد. لقد خدعت وسأخدع الكثيرين . وسأطرد أم حسين وأهينها لو ... ورن جرس الهاتف من جديد . ورفعت السماعة إلى أذنيّ :

ـ هلو .. نعم .. منو ؟

ـ ... ...

ـ هم إنت ؟؟ شتردين ؟؟

ـ ... ...

ـ إنت ما تخجلين ؟ منو گلج آني بحال فلوسچ ؟! شوفي.. والله والله إذا خابرت مره ثانية ابهذلچ .. اوگعچ بورطة ما إلها تالي

ـ ... ...

ـ كافي . حقيره

وأغلقت الهاتف بعنف وارتميت على سريري ابلل وسادتي بدموعي .
أنا الكعبة التي كان يطوف حولها صابر المرهون مقبلا ومدار ومنفذا لكل رغباتي ، أصير لهذا الحال ؟ سلعة رخيصة بيد أم حسين !!. الله يرضى عليچ ريم . يعني مادام ورطتي نفسچ بأم حسين لازم تورطيني آني !! الله يذكرة بالخير لصابر المرهون .. الوحيد اللي يحبني ويخاف عليّ . الوحيد الذي ما حذرني من إنسان تعاملت معه إلا صدقت نبوءته . ولم اتعظ . ركبت رأسي (بعد شيفيد؟). أنا بين أمرين أحلاهما مر . إمّا بقاء رأسي عاليا أمام صابر فيما لو التقينا وما يسمع عني وأنا متأكدة أنه يتسمع لكل ما يتعلق بي ويصعب ذلك إلا بطأطأة هذا الرأس الفارغ الجميل أمام سواه بعيدا عن علمه، وإمّا العودة إليه . وقد اتخذت قراري . أنا لن أعود إليه . لن أعود لرجل أحبني وعرف عني الكثير الذي لم يعرفه سواه . أن له حاسة سادسة . كم مرة اتصل بي من تل المردة وفي أوقات مختلفة ليسألني عن وضعي الصحي . النفسي . المادي . وحتى البيتي . وأجيبه بكل الخير ، وأنا أعاني ما أعانيه . أكذب عليه فأنقل له غير ما يحدث . وحين التقي به اسأله :.لقد سألت عن كذا . من قال لك بحدوثه؟ فيقول أن لي حاسة تقرؤك على البعد . وثقي أنك ما دخلت طريقا مسدودا إلا وهتف بي هاتف من الغيب ليعلمني به فاضطر للاتصال بك وأدري أنك لن تصدقيني الجواب . وأدري أنك ستعترفين بالحقيقة حين نلتقي:
ـ شسوي .. ما أريد اشغلك وأنت بالغربه.

يا غربة الروح التي أعيشها بعيدة عنك يا صابر. لم أحفل وأنت معي وعلى اتصال بي بشيء حتى ولا بقيام الساعة لو قامت وها أنا أعيش

انقطاع وصلك ازمات متتاليات . هل تراني أدفع ديونا مستحقة علي ؟ وماذا تغير بي لتحل على رأسي كل هذه اللعنات ؟ لم يتغير شيء . فقط صرت نائية عمن شاركني صادقا كل هواجسي . نأيت عنه باختياري وبمحض إرادتي . كان يجالسني النهار كله وفي الليل يشاركني أحلامي . ولم أكن أملّ جلسته حتى انهرت حين دفعتني خطاي إلى من غدا بيده أمري . أن مرضا عضالا سيسلمني إلى الموت أن لم استعن به . سأتصل بمن يعينني على مرضي . بأبي جعفر . الرجل الثري الذي يغرقني مقابل ضمة واحدة بالدولار وإن عافني صابر . وإن رحل عني بعد ذاك . أنا واثقة أنه سيهجرني وإلى الابد لو علم بمن استعنت على متاعبي . فليهجرني أسلم . البعد عنه خير . أما اقترحت علي ذلك لميس ومنذ أمد بعيد ؟ أما أشار كل من يحرص علي بذلك ؟. الآن سأتركه رغما عني وسأدعه يهجرني رغما عنه .

واستعنت بسواك يا صابر المرهون . انحنيت أمامه. قبلت يده فأعطاني صكا ، وأعطاني . يا ويلتي . معها مفتاح شقته المطلة على شواطئ النهر الذي ضم جسدك النحيل . فهمت أن الدفع مقدما فدفعت وتعالجت وشفيت. والتقيت في غربتي بأم حسين صديقة ريم وكأي غريق أمسكت بالقشة التي مدتها إلي حينها، ولم أفطن إلى أنها القشة التي ستقصم ظهري . باعتني أم حسين لأكثر من رجل . أنستني ولأشهر عديدة صابر المرهون وفقره وضيق يديه . وأنستني طيبه واجتراحه المستحيل من أجلي . أبدلت عشاقي بحسب ما تملي علي الظروف التي غدت تسيرها بين يدي أم حسين . هنت لأكثر من مرة و(من

يهن يسهل الهوان عليه) مذ افترشني أبو جعفر غدا الأمر طبيعيا أن أكون الفراش لأي رجل سواه . حتى كانت المواجهة المرة التي القتني أمام صابر المرهون .

ـ من الذي دفع بك إلى ذلك الطريق الأعوج ؟ قولي أنطقي . بمبلغ تافه من المال تتنازلين عن كبريائك وعزتك ايتها المغرر بها ؟ انقطعي عنهم . اطرديهم، توقفي عن زياراتهم، وتحت قدميك أضع ما تطلبين وفي الساعة التي تحتاجين ..

ونظرت إليه في كبرياء وكبر أعمى . نسيت أنه صابر وأنه كل شيء.

ـ منو گلك أني بحالك؟. واجهته بذلك ونسيت أني ما كبرت عليه إلا بمن باعتني لأكثر من رجل . ونسيت أني كنت به عزيزة كبيرة وصرت بهم ذليلة حقيرة . صدقت بمن صفق حولي وأعجبتني نفسي فانتفضت ، وسرت مرحا حتى كدت أن أطير . ولأقل أني طرت وقبل أن أحلّق هويت في شرك نصبه لي صياد قص جناحيّ فما عدت أقوى حتى على السير كما كنت شامخة مرفوعة الرأس . لقد امتصني الرجال . تقلبت في أحضانهم وكان كل منهم يأخذ مني أكثر مما يدفع لي حتى اتخذت من ذلك مهنة امتهنتها على مرارة .

ـ أبو محمد . عيني . فدوه . ما دا ألحگ على الدوام . شلون ؟ سويلي چارة...

ويضحك أبو محمد ملء شدقيه

ـ ولا تهتمين أم وميض . اليوم أنشاء الله نتفق . - وقبل نهاية نوبة الدوام بأكثر من ساعة -

ـ أم وميض أني طالع للمديرية ترحين وياي ؟؟ أوصلچ ولو لنص الطريق!!

ـ خاف تصير عليك زحمة أبو محمد؟!

ـ مو بالحيف أنت تؤمرين أمر.

واذهب معه وأنا ادرى الذي يبغيه، يفكر به . وبدلا من المديرية نتجه إلى ضواحي بغداد هناك على أبوابها وبين نخيل بساتينها أمنحه ما يرغب . أخلع بعض ما يستر جسدي وألهث تحت لهاثه واحتقره . أتركه وأعود إلى بيتي ليبدأ دوامي الرسمي بعد التاسعة منذ ذلك التاريخ . اشتريت ساعتين من كل يوم من أيام السنة على مدارها بساعتين بين ذراعي أبو محمد . وما أن يهل عام جديد ينقل فيه أبو محمد إلى مركز آخر في موقع جديد حتى أبدأ لعبتي الثانية مع أبو ستار السائق الأحمق الذي طالما طاردني. إنه من معارفنا لكنه لم يستح من مطاردتي بإصرار غريب مذ رفضته زوجا قبل زواجي . لأتصل به الآن . فصابر المرهون غدا بعيدا عني وعنه. ومدرستي ابعد ما تكون عن داري وداره .

ـ شتكول أبو ستار. وأمام زوجي ـ نعطيك كل وحدة عشرين دينارا شهريا. إحنه خمس مدرسات من المنطقة . تودينا للدوام بس . والجية يدبرها الله . ويوافق أبو ستار . يأتني صباح كل يوم في السابعة، وأذهب معه في جولة قصيرة، أمنحه خلالها غنجي وأحيانا قبلاتي قبل أن يتركني بباب مدرستي. وقبل انتهاء دوامي يطل علي. قلت لزملائي أنه أخي وصدقوا ذلك وإن عقبوا :. ما (يشبهچ ولا شويه) . هذا الأبله القميء لم أعطه دينارا واحدا لأكثر من عام، كان خلاله سائقي الرسمي وعبدي

المأمور . بإشارة مني يذهب إلى جهنم إن اشتهيت . لا يحول دونه ليل ولا يعيقه نهار . لم أعطه دينارا واحد لكني سأعترف أني أعطيته جسدي لثلاث ليال اختلستها من خفارات زوجي، وكاد بسببها أن يهجر زوجته وأطفاله الخمسة . عام ويزيد يعج بكل ما هو غير مألوف والسفينة تبحر بما اشتهي أنا ، حتى ارتاب زوجي مذ أخذ أبو ستار يكثر من زياراتنا رغم ضياع سيارته من يديه . حينها طردته من حياتي وغدا عليّ لزوم إبدال مدرستي بأخرى قريبة من بيتي . وهل يصعب هذا على عفاف الزايد ذات الجمال الذي سحر كل ناظر إليه؟ ببساطة وافق أبو مثنى . بخلوة ساعة وإيّاه في غرفة معزولة عن الآخرين آخذ الأمر على عاتقه فنقلت إلى مدرستي التي غدت أضيق علي من السجن . وها أنا سجينة بين جدران البيت والمدرسة مشار الي بالاتهام . ألف يد تشير إليّ ، وكم من هاتف يدق في بيتي ويرفض البوح بما لديه أن رد عليه سواي . ساترك بيت زوجي وأهجر وميض وأخيه وأغادر إلى دولة ما ، إلى جهة بعيدة أضيع فيها . سأتدبر أمري بعيدا عن عيون زوجي ، وسأدع أرضي وبيتي وابنائي لكني لا ولن أهجر ذكراك يا صابر. لن أنساك يا من تمنيته زوجا فما استطعت . سأعود اليك روحا ترقبك وجسدا يموت ظمئا لإضمامة من ساعديك . ساعديك اللذين ذقت حلاوة أحدهما قبل سنين عديدة حين امتد ليرفع ثوبي إلى ما فوق ركبتي . لم يكن حينها وأنا واثقة مما أقول يبحث عن طراوة ساقي ولا اشتاق لرؤية بياضها . لم ترتعش يمناه حينها كما ارتعشت ساقي . لم يكن مشتهيا إيّاي وإن كان محبا لي . لقد دفع بثوبي إلى أعلى قليلا وأمام جمع من الحضور رفضت كشف أي منهم على الحروق

التي أصابت ساقي حين أندلق أناء الماء المغلي عليها . رفع ثوبي وكان بودي لو يرفعه أعلى وأعلى وينزل سواه ليتداخل وإيّاي حتى الموت . لكنه لم يفكر بذلك وحاشاه . آلام ساقي الممضة تحولت تحت راحتيه إلى خدر لذيذ . كيف حدث ؟ لا أدري . كل ما أدريه وأنا مغمضة العينين تأخذني أحلام اليقظة بانسياب لذيذ آنذاك أنه ضحك مني وقال:.

ـ والله بالحيف.. على مود هذي الحروق البسيطة گلبت الأمة ؟ تگولين آني وآني. وينچ لعد!! ثم ضحك ومسح على شعري براحته بعد أن أسعفني ببعض ما تيسر من الدواء وعرض استعداده لأخذي إلى المستشفى إن لم أطمئن لإسعافه إيّاي . لا يا صابر . لا يا حبيب الروح . اندثرت كل آلامي. ففي راحتيك العافية كل العافية وليتها وليتني استطعت استصراخك فتسعف الجرح الذي يمض فؤادي . براحتيك لا سواك سأشفى . أهواك . أتحرق اليك، أجن فيك، فأشعلني باشتعالك أيها الرجل الذي اخترته عما وأخا وصديقا وحبيبا .. و... لماذا لا أعرض عليه الزواج ؟ ولماذا لا أهجر زوجي من أجله ؟. ويعز علي التفريط بوميض إذ تستيقظ عندي روح الأمومة فأدعوه إلى مائدة عامرة بكل ما لذ . وأدعوه خلالها إلى جسدي . قررت أن اتخذ منه عشيقا ولتتزلزل الأرض وتهبط السماء بما فيها على رؤوسنا . سأجن إن لم أذب فيه . إن لم أذوّب هذا الجليد المسمى صابر المرهون . علام صبر هذا الصابر ؟ ولمن رهن في صبره ؟؟ عليّ ولي . ولي وعليّ ، وسأشعله وليشتعل العالم كله إن لم أناله فما همني من العالم شيء إلاه ، ولا عشقت ولا همت بسواه . وضعت قدمي على أوّل الطريق إليه . تجاوزت نصف الطريق . وقفت على

حافته الحادة الاخيرة . تجردت من نصف ثيابي وارتميت عليه . قبلته عضضته . تعلقت برقبته حتى أنهار تحت ضغط نهديّ وجموح ساقيّ . لكنه أنتفض بغتة ودفعني بعنف

ـ علام ؟؟ـ قلت ..

ـ لقد توقفت ـ قال ـ وأشار إلى ساعة جدارية تتسلق الجدار في مواجهته وكانت قد تجاوزت منتصف ليلة١٠ ـ ٤ـ ١٩٧٣م عندما تسمر عقرب ساعاتها في محله وأبى عقرب الدقائق ، ولا أدري هل أنه عجز أم أبى اللحاق به . قلت له الفجر بعيد ما يزال . فصمت . قلت له :: أنا أحبك وصمت . قلت له : لتكن زوجي فلدي من الأصدقاء الكثير . وصمت . قلت له :: كن عشيقي لليلة واحدة .. للساعات المتبقية من هذه الليلة التي أريدها حمراء مشتعلة . أرو ظمأي .. إن جسدي يشققه الجفاف . وصمت قلت له أن يتكلم . إنك ستدفعني إلى الجنون . أنطق قل أي شيء . اشتمني . اضربني . خذني اليك . مزقني . أريدك بأي ثمن . فما زاد على صمته إلا بكلمة واحدة .. قالها ودموعه تغسل خديه..(حرامات) ... وجننت. جززت شعري ضربت رأسي بالحائط .. صرخت .. شتمته ، ومن ثم دفعت به إلى الشارع . كدت أن أكون فراشة . وكم تمنيت ذلك . حاولت أن يكون غطائي ولو مرة . بل صرت له الغطاء والفراش الوثير . زنيت به. أو .. زنا بي . لا يهم .. ولتسقط كل القيم وتنطبق السماوات ولتزلزل الأرضون فأنا قد همت بصابر المرهون . أنا عفاف الزايد وسأضيف من هذه الساعة المرهون إلى اسمي . وسأتخذ منه عشيقا . أما كذبت الكذبة الأولى على عاملة البريد بسببه ؟؟ اما قلت أنه عمي ؟

فليكن كذلك . وإن عجزت عنه فسأصنع لي أخا لا عما وأضاجعه على رؤوس الأشهاد نكاية به. وسأنتقم منك يا صابر المرهون . يا عمي الذي لم أستطع الوصول إليه . يا حبيبي الذي اعتذر بأنه لم يطلب من الساعة أن تتوقف بعد منتصف ليلة ١٠ـ ٤ ـ ١٩٧٣م ولكنها توقفت رغما عنه . إنها توقفت بإرادته . هو من أوقفها وإن ادّعى غير ذلك . بل إنها لم تتوقف على الإطلاق . أنه كذاب هو الآخر . وسأفضحه وسأعلن أنا المرأة اللعوب عفاف الزايد المرهون زنيت بصابر المرهون أو زنا بي وكذب كل ما قاله بخصوص ذلك وعداه . أنا عفاف الزايد أعلن وأشهد الجميع أنني عشقت لحد الموت . وهمت لحد الموت . وحين لم أنل ممن أحببت وعشقت ما أبتغي عمدت إلى فضحه وسألاحقه بلعناتي فلدي منها الكثير . ومن بعضها هيف قامتي وبياض بشرتي وكثرة معارفي وجلهم من المؤثرين واصحاب القرار . فاسمعوا أيها الضاربون في طول الأرض وعرضها . لم تتوقف الساعة قطعا الا حين أغراني صابر بالزنا . وإلا بعد أن زنا بي وهو بكامل قواه العقلية والبدنية ضاجعني وأنا من اشتهيته وفضلت الموت على يديه . بل طلبته منه علانية وأكثر من مرة كان اخرها عند عودتي من مشفاي ، وحين التقيت به صدفة وبعد إيابي بأسبوعين ..

ـ لم أرك يا صابر في استقبالي حين عودتي من مشفاي ، بل لم تكلف نفسك بزيارتي . تصورتك خارج بغداد . وسألت عنك قبل وميض فجاءني الجواب حادا قاطعا حزّني من خاصرتي . وأضاع علي بهجة الإياب والشفاء ولقاء الأحبة . أنه منزو ـ قالوا ـ في شقته يعب كؤوس العرق ويصغي إلى ... ... هكذا أخبروني . فتأسيت وارتحت في آن واحد . أنا عاتبة عليك يا حبيبي . لم تكلف نفسك حتى ولا بزيارة بسيطة تسكت فيها السن الشامتين

- ... ...

ـ أأنت غاضب علي لاستعانتي بأبي جعفر؟ مضطرة كنت والله. صدقني

ـ تعلمين ؟!

ـ ماذا ؟

ـ لو كان امرك بيدي لعلقتك على باب بيتكم . لخنقتك بيدي . لـ ... آآآآه لو أستطيع قتلك ايتها الفاجرة ، كنت ارتحت وارحتك من هاوية مظلمة اراك تندفعين إليها عن غير وعي .

ـ اقتلني أن كان ذلك يريحك يا صابر . وكفاك حرقا لأعصابك يا حبيبي الذي قادني إلى الهاوية وبات يخاف منها علي .

ـ أنا قدتك إلى الهاوية ؟ عاهرة .. عاهرة أنت اليوم وأمس ومنذ عرفتك وأن لم أكتشف ذلك إلا متأخرا .

ـ بلى . أنت . واشكرك على ما وصمتني به . لولاك كنت غيري الآن . وفضلت الموت على أن اتنازل ... ثم ران صمت طويل قطعه صابر ..

ـ الآن .. ماذا ستفعلين ؟. بخصوص صابر، انتهى كل شيء . لا تفكري بي على الإطلاق . فقط قولي بم تفكرين ايتها اللعينة الغالية ؟!

- ألا أطمح بالغفران منك والتوبة على يديك ؟

ـ أبداً

ـ نسيان ما حدث والبدء من جديد؟

ـ ولا هذه

ـ إذن .. اؤمر وأنا من تنفذ

ـ لا يحق لي الامر إذ لم يعد لي المكان الذي كان . ولو تيقنت من بقائه ، ولو استطعت توجيه امر ما لقلت : عودي من حيث اتيت، أفضل لي أن يموت ذكرك إلى الأبد من أن أراك تتنقلين بين الأحضان كأي فاجرة.

ـ لم أصل إلى هذا الحد أولا . وسأنفذ ما تفكر به . إن مرحلة الاستشفاء الثانية بانتظاري ولن أعود بعدها . لكن .. هل تعتقد أني سأعيش في أرض الغربة نبية ؟! سأسقط بالتأكيد حتى لو قاومت شهرا وعاما وعامين مع ذلك سأذهب ولن أعود. سأريحك مني ولن أرتاح . لن أرتاح لغير ساعديك وتوجيهاتك وحمقك أيها المحب الأحمق . واتخذت قراري بالرحيل. الهرب من أطياف صابر المرهون حتى ولو إلى الجحيم . لكني فشلت مرة أخرى . تصدت لي عاطفة الامومة فأفشلت كل ما رسمته . عجزت عن اخذ وميض وأخيه معي . واستحال علي تركهما . ولمن؟ وصابر أول من جافى وأبى أن يسلك طريق الغفران . سأدفن روحي تحت طيات جسدي الذي سأعرضه لكل شار يدفع لي . أنا صاحبته . وأنا صاحبة حق التصرف فيه ، ولينتحر صابر . وليذهب إلى سقر . لن أدعه يعيش سعيدا وأنا اشقى بعذاباته . سأعمد إلى فضحه . وسأنسى وأدوس على كل ما منح وأعطى . أن لي معه ثارا دونه ثارات أحبائه الفلسطينيين من بني صهيون . ولي معه وقفة ستطول لكنها لا بد وأن تفضي بي في النهاية إلى مفترق أقف فيه على جثتك أيها الغالي . وحينها سأعب البيرة عبا. وسأرقص بكل فنون الرقص سأفعل كل هذا وأتصدر مأتمك لأستقبل مواساة المواسين على أنها تهاني . ولتنجدك مثلك التي تؤمن بها ، ولتذهب أنت ومبادئك وثورياتك وفجورك وكل امرأة عرفتها قبلي وكل

أنثى واصلتها بعدي إلى الجحيم . ها أنا بادئة بتحطيمك من هذه الساعة .
ليسمع الجميع:

إن الساعة لم تتوقف بعد منتصف ليلة ١٠ـ ٤ ـ ١٩٧٣م . بل استمرت بالدوران وواصلني خلال تلك الليلة وبعدها صابر المرهون وصال رجل لزوجته وكما واصل الصهاينة بيروت وشوارعها في ذات الليلة المشؤومة وما يزالون . واصلني وما زال حتى الساعة يواصلني . لقد تزوجني وأنجبت منه سفاحا وأنا ابنة اخيه زايد المرهون . من محارمه وأقرب الناس إليه . من له إذنان فليسمع .. ومن له عينان فليحدق جيدا . أن الرجل المدعو صابر المرهون أبعد ما يكون عن المبادئ التي ينادي بها وهو مجرم خطير وزنديق تحق عليه اللعنة ، فهو لا يني يضاجعني ليل نهار ، حتى غدت تلك الحالة الشاذة من عاداته التي بدأت تثقله فارخصني . لقد أرخصني وفرط بي بعد أن امتص أنوثتي . وثأرا لها هجرته مبغضة محبة . أنا أحبه بجنون . وأعشقه بجنون . وهو الذي اضطرني إلى التخلي عنه بعد أن عافني للذئاب البشرية مذ أبى غفران خطيئتي والصفح عني . اشهدوا : والحق أقول لكم . من كان بلا خطيئة فليرمني بألف حجر .. أكاد أجن به ولذاك وسواه قررت البدء بكشف كل أوراقه ونشر غسيله على كل الحبال . سأعلن حربي عليه واولها اعترافاتي هذه فخذوا بها . إنها بعض الحقيقة . أنا عفاف الزايد اعترف بكل ما يصلني بصابر المرهون حتى وإن غدا كما علمت أخيرا غذاء لأسماك دجلة الخالد .

القسم الثالث

غسان ..

الرجل الذي رأى



لن تصدقوا ما سأنقله لكم . .

أنا الذي رأى ، وما رأيته ليس بالمستطاع قبوله

لم أكن ملتاثا . . ولكني كنت الشاهد الوحيد . . .

أبدا. لم أكن ملتاثا حينما قادتني قدماي إلى شقته في الحي القديم . كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف ليلة ١٠ـ ٤ ـ ١٩٧٣م ، عندما حدست بأنني سأجد شقته كعادتها مكتظة ببنات الليل . قلت ما عليك يا غسان إلا أن تمضي ليلة دافئة في أحضان إحداهن ، ولأكن صادقا . كان بي شوق مجنون إلى لقاء سلمى ، أو هكذا أسمت نفسها . السمراء الممتلئة التي لم أر من تجيد مزاولة الحب مثلها ، حثثت خطاي إلى شقة صابر المرهون في الحي القديم . وحين وصلتها ارتبت بوجود أحد فيها . قد يكون غائبا لمشوار قصير ـ قلت ـ فها أن ضياء خافتا ينساب من شباك غرفة نومه المطلة على زقاق صاخب حتى في ساعات الليل المتأخرة عكس كل شوارع وازقة المدينة إذ كان يعج بالسكارى وطالبات اللذة أو الباحثات عن مأوى حيث تكثر أوكار البغايا وبائعات الهوى هناك . قد يكون ... لا يهم سأنتظره أمام باب العمارة المتهالكة التي تضم شقته فهو سياتي بالتأكيد . كنت أهمس لنفسي بذلك عندما بدأت على غير وعي مني بارتقاء سلم العمارة المتهرئ وأذناي تلتقط لغطا لم أتبينه حتى وجدت نفسي على أبواب شقته المفتوحة التي دلفت إليها ، وعلى غير

عادتي . ولجت غرفة نومه التي كانت بباب نصف مغلق بعد أن أخذني ضجيج امرأة كدت أميّز صوتها . أكاد أعرفها قبل أن أراها، أنا شاهد الاثبات الوحيد ، وأنا من رأى كل شيء ويا لهول ما رأيته . كانت عفاف الزايد المرأة الناضجة المهولة الجمال منثورة الشعر هائجة كأي مجنونة تسب وتشتم وما على جسدها الا بقايا ثياب ممزقة لا تحجب عنه نظراتي . أني لأقشعر وأنا أروي لكم ما حدث خاصة إذا عرفتم ما أعرفه أنا عن الصلة التي تربط صابر المرهون بعفاف الزايد . أنه اقرب الناس إليها . تسميه عمي رغم صغر سنه قياسا لها أو هذا ما كنت أعرفه . ومما زادني حيرة وضياعا خلوتهما تلك . ماذا يمكن تسمية هذه الخلوة في مثل هذه الساعة داخل شقة اعتادت على استقبال بنات الليل !! عفاف تصرخ وترغي والغرفة تغرق بالفوضى . بالجنون . بأكداس الكتب الممزقة ونتف الاوراق والجرائد التي ملأت أرضيتها . كل ما في الغرفة الملعونة يثير الارتباك والدهشة ، شظايا اقداح محطمة . ملابس ممزقة وكبرياء مسحوق وكتب ومجلات وأوانٍ مبعثرة في كل زواياها، وجنون يخيم على عفاف التي مازالت حين دخلت إليها تصم الآذان بصراخها . تجز شعرها وتضرب كل ما تقع عليه يدها بالأرض وصابر المرهون الوحيد الذي كان يذكّر بالهدوء المفقود في تلك الغرفة المأفونة . كان في سروال بجامته ملقيا رأسه بين يديه وغارقا في صمت عميق يحدق بعفاف وبالباب الذي فتح عنوة وبي كالأبله . ماذا حل يا ترى؟ ليتكم تعفوني من رواية ما حدث . أمرني صابر بالجلوس وهدّأ من روع صاحبته ورمى عليها قميص

بيجامته ثم ارتدى قميصا وأغلق الباب . استفسرت منه عما حدث وبعيوني فحسب إذ لم أجرؤ على فتح فمي .

فقال :.(تجيك السالفة)

ثم بدأ بإعادة النظام إلى غرفته مبتدئا بكتبه التي كم استغنى عن وجبات غذائه من أجل شراء معظمها ليدفع بها لمذبحة مجنونة داخل هذه الغرفة المكتظة بالكآبة والفوضى وقد عز عليه أن يراها على ما هي عليه . بل أني شاهدته وبأم عيني يرفع أحدها من الأرض ويقبله ويبكي . لم اتبين حينها معالم الكتاب الذي أبكاه، لكني علمت فيما بعد أنه أحدى روايات الشهيد غسان كنفاني الذي كان يجله جدا وما كان بكاؤه إلا لتمزق أصاب غلاف الكتاب الذي يحمل صورة الشهيد . وقد عقّب حين سالته فيما بعد عن سر بكائه فأجابني : أنه لفأل سيء أن يمزق كتاب لرجل كهذا في شقتي . ما الذي جرى لأحب رجل اليّ وأكثر النساء نقاوة وأقواهن شخصية في تصوري بين جدران هذه الشقة الآثمة ؟. أكثر من صورة تراقصت أمام عيوني باهتة مغبرة . وطن يسلب . امرأة تقتل غدرا ويمثل بجثتها .. طفل يهوي تحت عجلات سيارة مسرعة يقودها رجل أرعن. ثمل يوجه بندقيته إلى المارة في شارع مزدحم وكيف ما اتفق فيردي العشرات قتلى . طير يتخطّفني ويحلق بي إلى ما لا يرى ثم يهوي بي مسرعا لأعماق واد مظلم سحيق . مجاميع كبيرة من المجانين تنطلق في الشوارع مرتدية الأحمر، مسلّحة بالعصي والسكاكين ، والدماء تغرق الشوارع، دماء الأبرياء ودماء المجانين . طوفان يجتاح العالم، وأشلاء معلقة على أعمدة الكهرباء وفي شبابيك العمارات وأبوابها . كوابيس مضببة وأحلام

هستيرية . خواطر لا تمر برأس عاقل وأشياء لا تجانس بينها دارت في مخيلتي آنذاك . تشوشت الرؤيا لديّ حتى ظننت أني دخلت عالما غير العالم الذي اقف بين جدرانه في تلك الليلة السوداء منتظرا تفسيرا لما يحدث.

(تجيك السالفة) قالها بكل برود وبينها وبين توضيحه لما حدث أو لما كان، ما زال يحدث، امتدت دقائق طولها الف عام قبل أن يعقب عليها بـ : لقد اشتهتني رجلا ونفذت لها بعض ما أرادت . فغرت فمي دهشة . صعقت . إلا أنه سرعان ما أكمل بشيء مغاير لما قاله وإن لم يكن أقل غرابة : رفضت مضاجعتها وكما ترى .. كدت أقع في الخطيئة حين أغرتني أو كادت ، وحين صحوت وامتنعت حل بي ما تراه فاحفظ السر . لم أنطق بكلمة . حوقلت وما شعرت إلا ويدي تلتقط منديلا ورقيا من أرض الغرفة المتسخة وترتفع بها إلى خدي لتمسح دمعتين كليلتين انحدرتا بألم حارق .

أنا الشاهد الوحيد لما حدث وليتني لم اشهده . فصابر المرهون ليس جديدا عليّ . أنه صديق العمر . أعرفه بقدر ما أعرف نفسي ومن لا يعرف نفسه لا يعرف الآخرين ولا يعرفه الآخرون . أنا أعرف صابر وأفهمه أكثر من معرفتي بنفسي أحيانا . رجل مبادئ ومواقف . صديق أزمات ، وكما قال أحد اصدقائنا عنه يوما (اللي يخاوي يخاوي صابر) وفعلا . كان صابر بيننا الأكثر صدقا إذا عاهد . والعطاء اذا سُئل . والوقوف مع المأزوم في أزماته وقبل أن يطلب منه ذلك . هل جن الرجل يا ترى ؟ مسحت عيوني وقلت لعلي أحلم أو قد تكون غشاوة خالطت رؤياي

تبينت ملامح المرأة التي انزوت في ركن الغرفة واجهشت بالبكاء . كنت اتمنى أن اجد فيها غير صورة عفاف الزايد فلم اجد فيها الاها . قلت (يخلق من الشبه اربعين) فلأتجرأ واسأل :.

ـ صابر .. أحچي الي الصدگ . هذي منين جبتها ؟!

ـ منو تقصد ؟ عفاف ؟ معقوله ما عرفتها ؟ غريبة !! شنو القضية ؟ ما شايفها گبل ؟!. والتبست الأمور علي ثانية . لا أريد أن افهم شيئا من هذا الرجل ولا عنه . استدرت لأخرج من الشقة . غادرتها إلى الباب ثم عدت ثانية إليه . إلى صابر المرهون . أشفقت على تركه وحيدا وأنا الشاهد لما حدث . لذلك لم أستغرب حين سمعت بانتحاره غرقا في النهر الخالد. النهر الذي طالما أحبه والذي روى -كما يقول- عفاف، وضخ في وجنتيها ماء الحياة، ونقّاه من الأدران التي كان آخرها ما لحق به بعد منتصف ليلة ١٠. ٤. ١٩٧٣م إن كان قد لحق به فعلا فأنا ما أزال أشك فيما رأيت وأشك في أنه فعلا ضاجع عفاف .

إن لهذا الصابر من الأخطاء ما لا أستوعبه وإن لم يكن يعتبرها من جانبه أخطاء . إنه يقول دائما أن من حقي وليخطّئني من يشاء أخذ ما أشتهيه طالما كنت أشعر أنه من حقي . كان يقول ذلك لكني لم أكن اتوقع منه نقل نظريته عن الرجل المحق التي يتردد في الإيمان بها إلى واقع الحياة . إلى تطبيق فعلي . وعلى من ؟ على زوجة صاحبه وصديق عمره المثقفة المدرسة التي تهيبها الأرض التي تحمل جسدها !!. سقطت كل أحلامي بليلة دسمة كنت أبغي قتلها بين افخاذ سلمى وقناني البيرة التي لا تخلو منها شقته رغم أنه كان لا يستسيغها ، ولا يقايض صندوقا منها كما يقول

بـ(بيك زحلاوي) لكنه وحين نسأله عن توفرها الدائم لديه كان يقول: يجيني ضيف . واحد ما يشرب عرك . شنسوي ؟ نطرده ؟ مو عادتنا . لازم نوفر اللي يريده . وبعدين ذني المسكينات اللي تسموهن (گحاب) . خطية. يجن توالي الليل تعبانات . مغثوثات . هم يريدن شي يسليهن يريح أعصابهن !!. كان إنسانيا جدا . وكان يفتح شقتة لكل من يطرق بابها حتى للبغايا وبائعات الهوى رغم أنه لم يضاجع إلا واحدة أو اثنتين منهن قال عن الأولى أنها تحمل الكثير من صفات (عفاف) ولم يكن يسميها لكني كنت أخمن أنه يعنيها . وعن الثانية قال : اضاجع فيها (خلود) التي عشقتني وامتنعت عن الزواج بها فظلت ظمآنة اليّ . أرجوكم -كأن يعقب- لتگولون للبنات (ويعني خليلتيه) ذلك . إن هذا يؤذيهن . قد يحتقرن أنفسهن . لهن أحاسيسهن بالتأكيد فلا تجرحوا مشاعرهن . يكفيني مغالطة نفسي وحسبي أني أعطيهن الحب الذي يحلمن به أو بعضه على الأقل . مثاليا كان حتى مع الساقطات . ما الذي دفع به إلى ما وصل إليه ؟ هل يبغى خوض تجربة لم يخضها سواه ؟ هل يريد الانفراد بخطيئة ما اقترفها إلا الزنادقة وهو صاحب الخلفية الدينية رغم مبغاه الذي يسميه سكنا ؟ كان يبدو من (أهل الله) رغم قناني المسكرات التي اكتظت بها شقته . متدينا كان في داخله، ولطالما تصدى رغم ما له من ميول يسارية ومفاهيم ثورية وشيوعية في معظم الأحيان لسياسة الاتحاد السوفيتي وحط من قدره ووسمه بالوصولية والانتهازية ولو شغل المرء نفسه قليلا بالبحث عن اسباب ذلك او في سبر اغواره لوجده ماركسيا يقف من زعماء الشيوعية موقف الند والمبغض أحيانا . أنه يتحامل في

حديثه على السوفيت حين يأخذ حديثنا بعدا سياسيا لأنهم انتهكوا حرمة أفغانستان المسلمة . وفتحوا قبل ذلك أبواب الهجرة ليهود الاتحاد السوفيتي إلى فلسطين . ويسب ويشتم غاندي ونهرو نكاية بأنديرا التي تسببت بانفصال بنغلادش عن باكستان . ويتحمس للثورة الإيرانية قبل أن تكشف عن وجهها الكالح؛ لأنها الجذوة المرجوة للبعث الإسلامي في العصر الحديث وإن سبقت بجذوات . كما يقول . علا معظمها الرماد فانطفئت . كان يذهب في أحيان أخرى لأكثر من ذلك فيدافع عن الإخوان المسلمين حتى تتصوره إخوانيا ويحمد فيهم أنهم (عبّروه) وكان قد أنظم إلى تنظيماتهم صغيرا، في مرحلة المراهقة التي كان يقول أنها أخطر المراحل في تاريخ الإنسان وحفظوه خلالها من الانحراف . علام أنحرف إذن صابر المرهون ؟ وكيف استدعى زوجة صاحبه إلى شقته ؟ هل جنّ وهو في أوج نضوجه ؟ لابد أن في الأمر سرا . ابرأه أنا أمام الجميع وأن رأيته بأم عيني في موقف يبعث على الريبة . أنا الذي رأى. وما رأيته لا أستطيع تصديقه على الإطلاق . لم يفعل اليساريون الذين حمل همومهم على كبر ما فعلوه . ووقف المسلمون الذين نشأ بين حلقاتهم ضد هذه الفعلة الكبيرة التي لا يغفر لمقترفها اثمه ، وتحولت إنسانيته التي يؤمن بها دون ذلك . فمن أباح له ما اقترف . الوجودية ؟؟ ولا حتى هذه .. إذ لم يكن ممن تأثر بها على حد علمي ، وجل ما يذكره عن مفكريها حين نتطرق بالحديث عنهم ما جاء على لسان منظرهم جان بول سارتر : إن المثقفين لا يصلحون إلا أن يكونوا قتلة . وما تحوّل صابر رغم ذلك إلى قاتل .. كان أعجز من أن يقتل جرذا . كيف يقترف إنسان كهذا جرما تتزلزل له الأرض

والسماء إن كانت عفاف من محارمه فعلا كما تدّعي وأشك فيما تدعيه؟ حائر أنا . بماذا أتحدث عن هذا الرجل الذي لم أعد أستطيع تصديق ما أرويه لكم عنه وما شاهدته في شقة تضج بالمتناقضات من ملصقات فاضحة ليابانيات طالما حلمنا بنحافة خصورهن وأخرى لمناظر طبيعية هادئة تنم عن حس مرهف غارق في الرومانسية إلى إذنيه . خريطة لفلسطين وصور لشهدائها . لوحات لأطفال يفيضون بالبراءة ، وصورة لقرد يمارس الجنس مع امرأة كان صابر يقول عنها أنها ايرلندية . ولا أدري كيف وصل إلى علمه أنها من ايرلندا البلد الذي يصف ثواره بالسماسرة لا لشيء واضح إلا لأنهم وكما يقول : لا يملكون نظرية يحاربون بهدي منها. الأرض؟؟ وماذا تعني الأرض بلا نظرية أو عقيدة تقّوم شعبها وتعلم ثوارها؟ لو نفع ذلك لنفعتنا ثورة (١٩٣٦م) العاتية في فلسطين، أيام خرج الشعب كل الشعب يقاتل الطلائع الصهيونية القادمة من مباغي ومواخير أوربا بالمعاول والعصي والحجارة . كان يرد فشل الثورة آنذاك إلى ضياع النظرية وجهل القادة ، وعمر القوة ما فعلت شيئا إذا لم تستند إلى فكر يقومها، لذلك أنظم إلى إحدى فصائل الثورة الفلسطينية حال تأججها . كان يقاتل بكلمات مؤثرة إذ أعاقته عفاف عن الانضمام إلى ركب الثورة بل لم يبق له عن الرحيل حينها سوى انتظار بضعة أيام لتقع خلالها وثيقة سفره بيد عفاف، فيحال بينه والسفر، وتقبر أحلامه بمعايشة الثوار داخل قواعدهم . لقد اعتبر صابر ذلك اليوم هزيمته الأولى في أكثر من جبهة وأن ظل محتفظا بصورة مجسمة لرشاش كلاشنكوف بالحجم الطبيعي في شقته الموبوءة بكل غريب . ظلت

الثورة هاجسه . عاش معها في جبل الحسين وعانى حصارها في الجنوب اللبناني ، ولم يزد حين سماعه نبأ كارثة (فردان) وسقوط ثلاثة من قادتها قتلى بنار الغدر الصهيوني في منتصف نفس الليلة التي كاد أن يزني فيها، بعفاف الزايد، وكنت قد نقلته إليه في الصباح إذ سهرت معه تلك الليلة الليلاء إلا قوله والدموع تغسل خديه .. هكذا دائما .. عندما تجيء المصائب تجيء مجتمعة . أمن سخرية القدر أن تجتمع مصيبتي بعفاف مع مصابي الأعظم بقادة الثورة التي نذرت لها روحي ؟. إذن لم تحجم الساعة ليلة أمس عن المسير اعتباطا . إنها كانت تعلن عن تقوقعها .. عن حزنها . عن احتجاجها المكتوم على أعظم حدثين يهزاني من الأعماق يقع الأول في شقتي ويصيب الثاني من زرعت كعربي مخلص لقضيتي عليهم الآمال !!. بس ... مستاهلين . وكان يعني بذلك ما حصل للقادة الشهداء في فردان بيروت . هي ثورة لو حولوها الأفندية إلى مكاتب وصالات استقبال وبدلات أنيقة وتلفونات . إعلام . إعلام وبس . الثورة يا ناس مكانها مو بيروت . ما يجوز لوجه بارز بالثورة مثل اللي راحوا يسكن شقة بعمارة مكشوفة بشارع معروف بمدينة مثل بيروت ما يگدر الإنسان يعطيها هوية خاصة بيها . الثورة بالجبل . بالكهوف. بالأدغال . بالأغوار . المفروض يصير كل واحد من اللي راحوا جيفارا . وإذا عقدتهم صارت الاشتراكية والفكر الاشتراكي خلي يقتدون بعمر المختار مثلا . بالمهدي بالجزائري : عسى يستفيد البقية وينظفون ثورتهم من روح البرجزة ومظاهرها اللي دخلت وي بعض التنظيمات الهايفة اللي فُرضت على الثورة والثوار .

كانت الثورة هاجسه وفلسطين حلمه.. كنا نقول له : (شدعوه صاير فلسطيني أكثر من الفلسطينيين؟) فلا يرد علينا الا ببضع كلمات أذكر منها .. لأن الثورة الفلسطينية تمثل النفس الشريف الوحيد اللي ديدخل ويخرج من الرئة العربية . بس . مو أكثر. لنقاوة الثورة الفلسطينية ولشرفها ولالتصاقها بالأرض ووجدان الأمة . ولنظرية كان يؤمن فيها طرحت نفسها على الثورة ووجدت الكثير من مناصريها . أنظم إلى الثورة ادبيا وفكريا بعد أن حيل بينه وبين الانضمام إليها مقاتلا . وتحامل على عناصر الثورة الايرلندية .. فهم لا شرقيون ولا غربيون وليس لهم نظرية مستقلة يستطيع الإنسان أن يتخذها حجة يدافع بها عنهم ، ولولا تمسكهم بأرضهم وحبهم لروح الاستقلال لناصرت زعماء لندن عليهم . كان يقول . لكني إنسان وأتعاطف مع كل من يبحث عن استقراره واستقلالية قراره . وعندما نؤاخذه على صفة (العواهر) التي يلصقها بالايرلنديين يضحك قائلا . وشبيهن العواهر؟ بعينكم داتشوفون اشگد اداريهن . شقتي مفتوحة الهن ليل ونهار . يرحمه الله .. كانت شقته ملاذا لكل من يطلب فيها ملاذ تتزاوج فيها صور العواهر بصور القديسين .. ولوليتا بالكتاب المقدس . والفلسفة الماركسية بمبادئ البعث . وكتب الفقه بغثيان سارتر . صور شتى للرجل المدعو صابر المرهون واوضحها صورته إنسانا . الإنسان الدمث الطيب الذي كما وصفته في يوم ما عفاف الزايد في مجلس ضمنا (ما ينلحگ . ولا راح يلحگ العرب . أيده مو إلهْ) . كأن هذا قبل أن أصبح الشاهد الوحيد الذي رأى . وليتني ما رأيت ولا سمعت . وليت أن الأرض أنشقت وابتلعتني فمنعت عني ما رأيته في

شقته وما سمعته فيما بعد عن بيروت ، وما حدث لها . له.. ولها . ليلة ١٠.٤.١٩٧٣م ساعة توقف عقرب الساعات عن الحركة وعجز عقرب الدقائق عن اللحاق به فتباطأ حتى توقف هو الآخر . ساعة دخلت عليه شقته لأنطق علية بأحد حكمين أخفهما قاس وأحلاهما مر فأنقلب على نفسي وأسهر مع آلامه حتى صباح تلك الليلة الليلاء لأزيد همه هما آخر بإذاعة نبأ اقتحام بيروت وسقوط القادة الشهداء على مذبح الحرية . لقد أحسست أنا الذي رأى وكأني كنت أحدس قبل الحدث الجريمة بسنين أنه يعيش تحت تأثير ورطة لا يستطيع منها فكاكا وحاولت انتشاله منها . عرضت عليه الزواج وأبى . كنت أطمح إلى استقراره . لم شمله . لكنه رفض ذلك . كان يقول أنه لن يعمر طويلا ولا يريد أن يترك ثقلا على من بعده . ومرة أخرى يقول أنه (مفلس) . والمره تريد بيت . تريد على الأقل ضمانة الها ولأطفالها .

ـ ولكنك موظف يا عزيزي

ـ هذي هم تسميها وظيفة ؟. مية دينار بالشهر؟؟ شأعطي اجار؟ شأصرف آني؟ وشأعطي لزوجتي ويضحك . لا سامح الله . ولأطفالها؟ بعدين .. منين اجيب الالاف اللي راح يطلبوها الناس مهر؟ لو تتصور يا غسان الزواج مثل ما يگولون العامة (شغلة الله يسهلها) . يسهلها منين ؟؟ اتداين ؟ طيب .. أني گدران افي بالتزاماتي ؟ گدران اوفي الديون اللي وصلت للألف دينار؟. ثم مو أنت نفسك تطلبني من سنين ما گدران اعطيك فلس واحد بالشهر! شلون تريد تورطني بالزواج ؟ بيش تطلبني !!

ـ طيب . إذا المشكلة الفلوس والسكن ، آني راح أحلها الك . شتگول؟؟

ـ شلون ؟ تدايني . ولإيمته ؟ لو تعطيني منحة ؟ هيچ .. في سبيل الله من باب البرمكة ؟

ـ لا يا أخي . لا هذي ولا ذيچ

ـ شلون بس؟ فهمني!!

ـ بيتي واسع . أگدر أتخلى الك عن غرفتين . ونتعاون ونبني الك مطبخ وحمام يصير مشتمل مجاني . والمره .. اختي . آني ازوجك اختي وابيتي ولا متقدم ولا متأخر . أشياء شكلية بس .

غصصت والله حينها بهذا العرض الذي قدمته له . وأقسمت أن لا أحد يدري أن لي أختا غير متزوجة . لكني لم أكن أريد لصابر أن يضيع ولا أن ينتهي النهاية المأساة التي أنتهى إليها . كثيرا ما قال أنه سيموت ميتة غير اعتيادية . كيف ؟ ويضحك ويقول . قتل . دهس . غرق . والحقيقة أني أفضّل الغرق لو يخيروني . الرسول(صل الله عليه وسلم) يگول ما معناه .. اللي يموت غريق يموت شهيد . ومن أحب فعف فمات ـ والعهدة على الراوي ـ مات شهيدا . وآني أملك الحب والعفة وامنّي النفس بالموت . خلي نجرب الموت .. نشوفة شلون طعمه ؟

ـ فال الله ولا فالك . كنت أقول . شكو . شكو مستعجل ؟ لاحگ . اصبر عليها شويه . ونسيت . نسيت أنه حين قدمت عرضي حول زواجه سكت . دخن سيجارتان متتاليتان واشعل الثالثة وتأوه بعمق وقال :.

ـ أني ما أستحق أناسبك. ولا أستحق اختك . إنت نادر وآني فد واحد غبي .. بليد. گول عني أكثر . تافه .. أي شي آخر.. وإيّاك أن تورط اختك بواحد مثلي . خليها . باقية اختي عيوني الها بيت . آني ما شايفهة صدگ. ووالله ما راح أشوفهه . لكن شوكت افكر بالزواج ما راح افكر بغيرها لا تعتبر أرجوك هذا ارتباط . خليها تشوف طريقها. خليها الله يسهل إلها ويسترها ومشكور كلش الك . بذكاء أنسل مما طرحته عليه . ولم أندم على ما طرحته . ليتني استطعت اقناعه بما أردته وكفيته شر الواقعة التي وقعت . أحبه . أحب في هذا الرجل عمق أسراره . حبه للناس . طيبته. أصالته . هفواته وجنونه ، حتى هذه أحبها . أحب فيه كل ما فيه إلا واحدة دخت فيها حتى آلمني صدغي .. تولد لدي نتيجة لها ما يسمونه بداء الشقيقة وأسمّيه داء الصحبة والصداقة . أن يضاجع الرجل منا امرأة .. أي امرأة وينجب منها سفاحا، أمر ليس بالغريب رغم كونه مرفوضا . أما أن يضاجع إحدى محارمه وإن لم أتأكد أنها من محارمه مسألة يقف لها شعر الرأس . ويتوقف الدماغ عن التفكير حيالها ، لا تتوقف ساعة الشقة المبغى التي ضمت جسدين لا أحلى من الأول ولا أعمق من أسرار الثاني، جسدا عفاف الزايد وصابر المرهون . حدث ذلك عندما كاد أن يزني أحدهما بالآخر علنا مع سبق الإصرار فيما بعد منتصف ليلة ١٠ـ٤ـ١٩٧٣م . الليلة المأساة التي تسلل تحت جنح ظلامها الصهاينة إلى بيروت وعاثوا واغتصبوا وقتلوا وكنت فيها شاهد الاثبات الوحيد على ما حدث في الشقة الملعونة الذي حاولت الساعة تدوينه والإدلاء به فما طاوعني قلمي إلا بعد أن صرت تحت تأثير الجنون الذي

بدأ ينتابني ولن أقطع بما حدث . ولا أنا بصدد إدانة صابر المرهون الرجل الحائر المحيّر . أنا ابرؤه من كل ما الصق به أو حتى رأيته بعيني وابكيه بمرارة واترحم عليه و ... اقرأ عليه الفاتحة لقد كان الرجل الذي مضى مؤمنا في داخله ذا نزعة دينية عنيفة رغم يساريته وحتى بعد أن ارتكب ما ارتكب . وحتى وإن مات كما بلغني انتحارا، فاقرأوا عليه الفاتحة.

إنه شهيد آخر من شهداء الثورة التي أحبها بعنف وبكى شهداءها بمرارة .

عليه السلام يوم أخطأ

ويوم مات

ويوم يبعث حيا

ولتغفر له خطاياه حتى وأن كانت كزبد البحر لأنه احب كثيرا ، وحسبه أنه أحبّ كثيرا .

الخاتمة

شهادة مجهول عن ...

... صابر المرهون



مر سريعا ..

كان كالمعتوه ..

كث اللحية ـ معقود الجبين . يشكل

أنفه الكبير المعقوف مع فمه الصغير علامة استفهام تختزن
الف سؤال . عيناه غائرتان ويداه مرتعشتان . حسبناه اول
الامر

ثملا حين القى مظروفه المغلق الموشح بالأسود ومضى محاولا
التهام الطريق بخطواته ، حتى إذا فضضنا غلاف المظروف
وجدنا فيه الأوراق التالية .. لم نتبين اسم كاتبها كما لم تمسك
الذاكرة جيدا بالصورة التي القت بها ولم نعرف لها هوية . تلكم
هي الأوراق وما دار فيها عن صابر المرهون أدوّنها كما هي .

الأوراق

كان يقتات على أعصابه . حاولت التسرية عنه أكثر من مرة وأنا أراه يدنو من شفا حفرة يكاد أن ينزلق إليها بإرادته . تعددت لقاءاتنا .. وتعددت أحاديثنا وتنوعت . ومنها ما أدوّنه الآن وما علق بذاكرتي منها . أذكر أني قلت له في إحداها وكان يتحدث عن خطيئة يدعي أنه اقترفها أو كاد أن يقترفها بحق من تصور أنها بل عدها من محارمه وهي ليست كذلك قلت له حينها : لم تكن أول من أخطأ ولن تكون آخرهم فعالمك مملوء بالخطايا والخاطئين . ما أنت من اقترف الخطيئة الأولى . قبلك أبوك آدم من سن الخطايا وأحد ابنائه من قتل أخاه من أجل امرأة . وبعده وقبلك ذلتا ابنتا لوط لنداء الشهوة فأسكرتا أبيهما وضاجعتاه وهن المؤمنات ابنتا النبي المرسل[1]. الخطيئة قبلك .. ومعك .. وستظل بعدك .. وإن رأى يوسف برهان ربه بعد أن هم بمربيته فما أنت بالصديق

---

[1] (وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل أهل الأرض . هلمي نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه ، فنحيي من أبينا نسلا . فسقيا أباهما خمرا في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها . وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة : إني قد اضطجعت البارحة مع أبي : نسقيه خمرا الليلة أيضا ، فادخلي واضطجعي معه . فنحيي من أبينا نسلا فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة وقامت الصغيرة فاضطجعت معه...) ، العهد القديم _سفر التكوين

الذي يهيئك الله لرسالة يبغى الإيحاء بها للناس حتى يبصّرك برهانه فيحول بينك والخطيئة[١] .

أنت رجل كبقية الرجال فما بالك تحمّل نفسك ما لا طاقة لها به ؟ وعلام تريد إذلالها؟. لو كنت مكانك لفعلتها . فأنا الآخر لست بيوسف الصديق ولا سواه .

أنت إنسان بلحم ودم وأعصاب . أنت رجل بهدوئك وجنونك وكل الرجال سواء .

علام ترى أكثر مما حدث؟ وتحمّل نفسك الذنب لوحدك؟ ومتى كانت ابنة الزايد هذه ملاكا وما هي الا امرأة كبقية النساء؟ أنت لم تفتض بكارتها ولم ترغمها على الزنى حتى لو أولدتها سفاحا؟!! كفّر عن خطاياك أو خطيئتك تلك أن كنت تعتقد بها، بنسيان طرفها الثاني. أنس عفاف الزايد. دعها لزوجها ودع لها مراءاتها وزيفها وابق كما كنت وكما عرفناك كبيرا. ليس من الإنصاف أن تجني ثمرة عمل لك شريك يناصفك اثمه لوحدك. أنها تقاسمك الفجور والضلال والجريمة. بل أن لها الحصة الأكبر في ذلك . لا اجاملك . تلك هي الحقيقة وما عودتك الا أن أكون صريحا معك في أدق الأمور واصعبها . امرأة متزوجة وام لأطفال تطمح في آخر منك لا لشيء الا لأنها تحبك؟! من يعقل هذا ؟ ومن اوحى لك بتصديقه؟ أنها اشتهت وحسب. ولو كانت تحب لاحتفظت بك حبيبا. من اغراها بالفجور؟ أنت !!. لا والله. أنك (لا تحل رجل دجاجة)، وأنا أعرفك جيدا . فكيف تزوّغ امرأة مثل ما تصف من بيتها؟ لقد سلختك .

---

(١) ..(ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) قرأن كريم . سورة يوسف

هي التي سلختك من مبادئ آمنت بها . وفكرا أشتعل فيك، وثورة نذرت لها نفسك . هي التي وطأتك لا أنت من وطأها. هي الزانية وعليها تقع جريرة كل ما حدث أو يحدث. أنها الكاذبة التي أضاعت في اكاذيبها نفسها وأضاعتك . سلها أن كانت تصدقك الحديث . كم رجل قبلك ضاجعت؟؟ إنها والله لم تنم معك بعيدا عن عيون زوجها إلا بعد أن نامت مع سواك بعيدا عن عيون من دخل الماء لبيته وهو غافل. أصح لنفسك أيها الذي عرفناك كبيرا وصغّرت نفسك وما صغرت ولا تغيرت ولا سمّيت الأشياء بغير اسمائها. تريدني الآن أن أصدقك وأحمّلك كما تود ذنوبا اقترفها سواك وأدّعيتها لنفسك؟؟ هوّن عليك فما زالت الدنيا بخير.

كلماتي كانت تحيله إلى إنسان آخر وتعيده إلى الطريق الذي يليق به. تشيل عنه هموما أغرق فيها من سنين نفسه . تنبهه أن لا خطأ يتم بين اثنين متوافقان إلا إذا اتفقا عليه، كما أن على العداء أن لا يدوم بين اثنين إلا إذا أصر أحدهما على خطئه. لم يكن يريد من عفاف الزايد سوى اسمها وحبها ، لا لأنه يميل إلى عذاب الآخرين واذلالهم ، لكنه وعلى حد معرفتي به وهي عميقة لم يكن يشتهي خرق ما متعارف عليه أو ارتكاب خطيئة أكبر من فاعلها. كان يريدها صديقة وحبيبة وأبت إلا أن يكون لها عشيقا وخليلا . وحين توقفت الساعة بعد منتصف ليلة ٤.١٠. ١٩٧٣م وحالت دون إتمام فعلته كما فهمت منه أضاعته . حملته جريمة ما اقترفها وإن دنا منها . ما أراد لها البقاء .. كما لم يرد لها أن تفنى بسواه .. وحين ضاعت وأضاعته، اشتهى الاحتفاظ بخيال لها .

أذكر أنه جاءني ذات مساء مخمورا بطلب لا يخلو من غرابة :

ـ أريدك تجمعني وإيها بصورة

ـ لم؟ ألم تقل أنك هجرتها وإلى الأبد حتى وإن كان هذا على غير هواك؟.

ـ وأؤكد ما قلته . لكنها ... رغبة بذكرى . مرحلة مهمة من حياتي لا أتمنى نسيانها. تعودت هكذا أن احتفظ بشيء ما يذكرني بكل مرحلة من مراحل عمري . أي مرحلة ...!!

ـ لا أتفق معك في الرأي . وستكون الصورة المطلوبة عندك خلال أيام قليلة

ـ كيف؟

ـ لا أتفق معك لأني أرى اجتثاثها من ذاكرتك أمر لا بد منه ، من أجل أن تحيا مرحلة جديدة تليق بك . من أجل بداية نظيفة بعيدة عن الشبهات . أنها مرحلة .. نعم . لكنها مرة .. قذرة . الاجهاز عليها أفضل من تخليدها. وستكون الصورة عندك لأنك لا ترد. ولأني اعجز ، بل لا اطيق الاعتذار اليك. سأعطيك الصورة. وسأطلب منك حرقها أمامي. ماذا تقول؟؟

ـ موافق . أو... دع الصورة والخيال والهوى ولتذهب جميعها إلى الجحيم . فبعض الهوى كما خبرته ونوهت عنه عاصف وتجنبه أكثر نفعا..(والباب اللي يجيك منها ريح .. سدها واستريح).

ـ رائع . أنت من قالها يا صابر

ـ وأؤكد ذلك . ولتمضي عفاف الزايد لأهوائها . وليمت كل ما يذكرني بها . ومن الآن سأكون غير الذي كنته ، ولا غرابة أن يغير النهر مجراه ،

لكن الغرابة أن ينكفئ على نفسه لعجزه عن تسلق تلة تعترضه فيغرق ضفتيه ويودي بمحبيه .

ـ اتفقنا إذن

ـ اتفقنا وأنتهى .

وافترقنا على ما اتفقنا من أمر عفاف ووجوب تجاوزها ونسيانها إلى الأبد فالإنسان ما يتجاوز . كما يردد هو ـ ما الذي حصل بعد ذلك يا ترى ؟؟ كل الذي أعرفه أن أحد الأصدقاء نعاه لي غرقا في مياه النهر الخالد . كيف ؟ ولماذا ؟؟. سأستدعي بعض صور صابر المرهون من أرشيف ذاكرتي علّي اجد تفسيرا لهذا اللغز .. أعرف أنه أحب ولم يعف كما يدعي، بل أرغم على أن لا يكون عفيفا . لكن هذا لا يعني أن يموت انتحارا كما سمعت ولم أر، أو يقتل الرجل نفسه لأنه أحب وأخطأ ؟ أم قتلها لأنها أحبطت ؟. لقد أحبط هذا الصابر كثيرا، وأفلس وبحث عن الموت وفكر به كثيرا . طلب مني ذات يوم مساعدته في الانضمام إلى تنظيم إرهابي ليس له هدف واضح ولا فكر ولا مبادئ، كان يظن أن لي اتصالا به . قلت له حينها أنك صاحب مبادئ وفكر وأهداف محددة . أتذكر الأسى يعتصرك وأنت تتحدث عن إخفاقات الثورة الفلسطينية ؟.. وكان حين يتحدث عنها يذوب الما ويركز دائما على مجزرة فردان واقتحام بيروت من قبل الصهاينة . لعله يركز على تلك دون سواها لا لفظاعتها وحسب بل لتزامنها وجريمته التي يدعيها في ليلة واحدة .

ما الذي يشدك إلى هؤلاء الإرهابيين أولا ؟؟ ومن قال لك أني أستطيع لذلك سبيلا وأنا لا أعرف عنهم أكثر مما تعرفه أنت وما تنقله الصحافة عنهم بإيجاز وابتسار؟.

ـ يخيل اليّ أنك واحد منهم

ـ أنت مجنون . وحتى لو كان ذلك فمن العيب أن تعمل معهم وأنت ابغض لهم من سواهم

ـ بصراحة .. أنا أبحث عن الموت.

ـ طيب .. ما لگيت غير هالطريق (المصخم)؟؟ لو تريد تبلي الناس ... وضحكنا

ضحكنا كثيرا . لا أحلى منه حين يصفو . ولا أروع حين يسكر . يقرأ الشعر بأسلوب يجعلك تصغي له بكل جوارحك . يفسر ما يظن صعوبة في فهم معناه مما يقرأ على المصغي ضمن قراءاته فيبدو التفسير والتوضيح أكثر طرافة وجمالا حتى ليخيل للسامع أنه من صلب القصيدة التي يقرأ . ما جالسه إنسان إلا أحبه ونفذ له ما يبغي إذا استثنيت نفسي وقلة من اصحابه . كنت أوجهه وهو اعمق مني ثقافة وأوسع فكر وأكبر عمرا . وكان يصغي بتمعن ويأخذ ما يقتنع به .. ولذلك اتفقنا . اتفقنا على أن تموت عفاف الزايد وتموت معها كل الهلوسات التي تضخ رأسه وتعمي بصيرته . قال .. يعني أنني سأميت كل من حولي من معارف وأصدقاء قد تكون أحدهم . كل ما يذكرني بتلك المرحلة !! قلت : .. على أن تبقى حيا. ووعد بذلك .

وافترقنا ليصلني النبأ القاصم للظهر.. مات صابر غريقا . قد يكون منتحرا. لا أدري . له عندي الكثير ، ولا شيء إلا ويذكرني به . لم التق به منذ افترقنا ، لكني لم افارقه منذ التقينا .. عاش معي كما عاشت معه عفاف الزايد .. أنا شاذ آخر ورجل (محق) بصورة جديدة . لقد احببت صابر المرهون حد العشق والوله . فماذا تقولون عني يا من تقع هذه الأوراق بأيديهم؟!

ارجموني أنا الآخر. صبوا عليّ لعناتكم وارفعوا ايديكم المتسخة واباطيلكم السمجة عن روح صاحب الجسد الأسمر النحيل . أيها الغرباء اغلقوا حناجركم المبحوحة عن ذكر مثالبه أن كانت له مثالب . واخجلوا من فضحه ميتا ما دمتم عجزتم عن فهمه حيا .. ام أن (اللي اختشوا ماتوا..؟؟)

أذكروا محاسن موتاكم واعلموا أن صابر المرهون لم يمت حتى وإن غدا وجبة غذائية من وجبات أسماك النهر الخالد .

أنه حي .. حي .. حي .. ..

أنه حي عندي على الأقل.

انتهت

ملحق بالأحداث

وجدت بين طيات ملابس صابر المرهون بعد تقليب حقيبة قديمة أودعها شقته في الحي القديم اعترافات له تختلف عما ورد في أحداث هذه الرواية يتهم فيها نفسه بالتردي ، ومن المعلوم أن صابر مات منتحرا.. والاعترافات لا تخلو من طرافة وعذوبة ومرارة وقد تزيد الأمور غموضا إلا أنها من جانب آخر تكشف بعضا مما فكر به صابر وعمل . وقد رأينا تثبيتها كملحق بالأحداث تحت نفس العنوان الذي اختاره لها صاحبها (الجريمة حدثت في ضوء القمر) لعلها تلقي بصيصا ولو ضعيفا من النور على ما حدث ...

الجريمة حدثت في ضوء القمر
كان اسمه تعبان
كان اسمه الغارق في الخطيئة
كان اسمه الباحث عن حقيقه
لكنني أشك في تكوينه .. أو أنه إنسان

(١)

عليك أن تجني ثمار أعمالك بيديك . تحمّل وخز الأشواك الناتئة في الغصن المورق.

لا أحد مكلف بتحمل تبعات اخطائك . لك أن تحب وعليك أن تأرق على أن تظل نظيفا . يا نديمي .. سنة الحياة تلك ، وليس من سننها أن تعشق ظلك ، أو ترتكب اثما يسير بك إلى الهاوية ، ولا من سننها دفع الخطأ بالخطأ وإيّاك أن (تزر وازرة وزر اخرى) .

بلى . لم يكن في يدك منع نفسك من أن تأثم !!. رفضت أن يكون لك الجنس هاجسا أو خيارا ، فلماذا تركته يسوقك إلى مذبحه الآسن؟! . لا أيها المسيّر المعصوب العينين .. لا عذر لك . قرأت عن رجل هام بافروديت التمثال حبا ، صلى في حضرته خاشعا . أدمن الركوع تحت قدميه ، اتخذ من متحف اللوفر في باريس معبدا له ، ثم اختطفه ... أو حاول ذلك . وكتبت في يوم ما عن الزوجة المنتظرة ودرت حولها وقد غدت اما ، ثم مددت يدك ترجو قطفها . من أعطاك حق أخذ ما لسواك ؟؟. كيف يسوقك طموحك لقطفها وغصنها مثقل بالشوك ؟ حدّق في ذاتك أيها المنقاد لشيطانه .

آه منك أيها الجرح المتألق .. بإمكانك أن تكون أي شيء إلا إنسانا . ادفع ضريبة هوانك، فقد افهم هوانك علنا .

****

(٢)

أنا . . من أنا ؟

حلم يقظة ليس إلا

كنت جاهلا نفسي . ضعيفا ... ضائعا . دخلت مدارات الضوء باحثا عنها . ودعت باديتي وخرجت ووجهتي المدينة الأكبر . وحين حططت رحالي فوق أديمها اكتشفت فيها الهم الأكبر . مأفون بين شوارعها وأزقتها طفت . حملت خيال أبي في ذاكرتي وأن لم أكن هاجسه . كنت ثمرة هواه وحسب . ما فكر بصابر حين ضاجع زوجته وأودعني أحشاءها . رحماكما يا من لم تورثاني سوى همّاً جررته معي في منفاي وطفت به شوارع المدينة الفاضلة. أي مدينة فاضلة تراها ؟ وفي إحدى ساحاتها التي كنت أدمنت ارتياد مقاهيها دنا مني رجل في أواسط عمره معرفا بنفسه ..

- أنا سميح العوني
- أهلا بالأخ

دنا مني أكثر .. التصق بي . الغيض يجفف لهاتي وبنطالي وساقاي تعصف بهما الريح . كان ريحا باردا . وكان العوني يبحث عن الدفء . لم أرد على مجاملاته السمجة ، ولم أسعد بالتعرف عليه ، غير أنه اقترب مني أكثر . الشتاء يجيء مبكرا هذا العام ، والبرد شديد والعوني يبحث عن الدفء

- .لم نتشرف بالتعرف عليك؟
- أنا صابر ... من ابناء البادية
- نزلت أهلا .. أخمن أنك طالب جامعي

نعم .. ومع نفسي كنت متحدثا (طالب في جامعة البحث عن الذات ..عن الصدق ..عن الحقيقة) . العوني يقترب أكثر . يمناه تمتد إلى ساقيّ . يصطدم عامدا بنتوء يتدلى بينهما . يفتعل ضحكة فاجرة ثم يردف (أگول استاذ، هذا إذا (نايم) هالطول ، بس من يوگف شطوله يصير؟) . كان شاذاً يبحث عمن يعتليه . أي سماحة يمتلك هذا السميح .. واي عون جاءني على غير موعد ؟.

ضربت معه موعدا . لتكن ساحة النور – مقهى الغرباء .. والزمن .. غدا بعد الظهر . اتفقنا . قالها ومضى .

ماذا يريد منك سميح العوني يا صابر ؟ ولماذا اختارك دون سواك ؟ . الرجل الغريب يدعوني لأثم لم أمارسه من قبل . سيغريني بنقوده حتما . أنا الغريب الخاوي الجيوب . لا بأس .. ، ستكون جيوبه مادة دسمة لاحتياجاتي . أنا أدخن أرقى أنواع السجائر .. من حقي . فأنا متزوج بمن يحتاج لرجولتي وعليه أن يتكلف بكل مصاريفي . سأشتري من الكتب ما أتمناه ولا أقدر على ثمنه . (أول الغيث قطر ثم ينهمر) . أوووووف . هذا الساقط من قال له أني بحاجة لنقوده ومؤخرته النتنة والمدينة تعج ببائعات الهوى والشوارع تضج بالمغتلمات ؟! .غادرته بعد أن اتفقنا على اللقاء مؤملا إيّاه بسيل من المني المتدفق والشبق البدوي المكبوت . غادرته واتخذت من الليل صديقا ومن الشارع هدفا . سرت ... دخنت.. اتعبني الطواف فأوقفني أمام فندق رخيص ، وفوق أحد اسرته المنهكة استسلمت لنوم عميق .

(٣)

الوقت منتصف النهار والشمس توشك أن تسلط اشعتها عموديا في شتاء ما زال في أوله . تسرب شيء من الدفء إلى جسدي . ارتديت ملابسي . أحكمت ربط حذائي ، ثم اندفعت إلى موعدي مع العوني . الساحة تكتظ بالراجلين وموعدي قد أزف إلا قليلا . وأنا بين هذه وتلك مشتت التفكير . وفجأة وجدت نفسي محشورا في أحدى الحافلات ووجهتي ساحة النور .

الأجساد تلتصق ببعضها . راقب وكن يقظا أيها الولد الذي شبّ حديثا عن الطوق .. ماذا أرى .. أنه لأمر عجب !! جندي يلتصق بطالبة أعطته ظهرها فبات لا يرغب عنها بديلا . لقد أشعلها لذة فاسترخت بينه وجدار الحافلة ، وامرأة تزعق برجل اتهمته بمعاكستها .. ومن يدري .. لعلها البادئة، وحين لم تفلح في استمالته اندلقت بطول لسانها معربدة مطالبة وبشكل مستتر بالثأر لكبرياء أنوثتها المستهان بها.

رجل معمم يحاذيني في وقفته . رجل دين بقفطانه وعمامته السوداء . خمنت أنه المنزه الوحيد عن الشذوذ في عالم الحافلة الغريب . الشيخ المعمم يلتصق بغلام أمامه . يا هول ما أرى . إنه يشده إليه مع كل ارتجاج يهز الحافلة ، وحين يخلص الغلام جسده من عفونة الإثم المتستر بالدين، أغدو البديل والهدف الجديد للسيد الزنديق . لماذا أنت يا صابر دون سواك .؟؟ لست جميلا ولا أنيقا ولا مغر، ولست الشاب الوحيد في هذه الحافلة المحملة بالخاطئين وأن كنت الأقرب إليه مكانا .

الشيخ يزحف خلفي .. يلتصق بي .. أنفاسه الحارة النتنة ، عمامته المزيفة ، رائحة الفسوق التي تفوح من جبته .. بكل ثقله يضغط قفاي . لا سبيل إلى الخلاص منه سوى الترجل في أول محطة تقف عندها الحافلة . تلك هي مدينتي الجديدة . ما وجدت فيها ظل ابي ولا طيبة باديتي . وجدت شهوتيهما في كل وجه صادفته . كفرت بكل القيم الزائفة وانسللت إلى خمارة قريبة .

في قدح من العرق تجد نفسك يا صابر وليبحث السميح العوني عن زبون سواي .

****

(٤)

ستجيئ ساعة قص هذا الشارب !!!

انسللت دون أن أنبس بشفة من بين شلة من الشباب المنضوين تحت راية حزب فشلوا في ضمي لصفوفهم فيه بالترغيب فحاولوا بالترهيب . سخريتهم بي ووعيدهم بقص شاربي يقرع سمعي . لماذا شاربك يا صابر وساحة المعهد تعج بما يطولها ويزيد ؟ لقد كنت شريفا في زمن لا يعير الشرف اهمية فحقت عليك اللعنة وجاء دورك فتثبت من ذلك قبل أن تتلقفك اياديهم . رفاقك على التوالي اخذ كل منهم نصيبه ومستحقاته . دخل هاشم المستشفى متأثرا بجراح أحدثها فيه الثوريون الجدد ، وخلّص الدركيون جبار من كمين نصب له وعصي انهالت عليه فذاق عنف أقربها إليه ، وسرقت كتب باسم وأشياءه الشخصية كما سرقت من بعد كتبي ، واهينت سعديه أمام جمع من الطلاب وسط غرفة تحقيق عفنة تسمى (اتحاد وطني) ، وأخيرا .. جاء دور شاربك يا صابر . سيقص حتما ، وهاجسي .. من يا ترى سيتولى حلاقته ؟ وهل سيحسن ذلك ؟! ليتهم توعدوا شعر رأسي الشعث بديلا عن شاربي ، إذن لطمأنت جيبي الخاوي بمكوث بضع دراهم فيه تشكل بمجموعها ثمن الحلاقة ، إلا أن المسالة أكبر من كل ما طرح على الساحة . أنها مسألة تحد فكري قبل أي شيء آخر . أعرف عن الأفكار أنها تتحاور ، واحيانا تتصارع ، لكني لا أعرف عنها أنها تدفع إلى قص الشارب . كنت حتى هذا الحين ممتلئا ببودلير : (قد اختلف معك في الرأي لكني على استعداد

لدفع رأسي ثمن ايضاح رأيك) . تغير مفهوم المقولة لدي إلان عكسيا ، فما بودلير خصمي . أن خصمي مستعد لقص شاربي . لإذلالي ثمنا لمحاولتي ايضاح رأيي . تلك هي ملخص الحكاية وعلي أن اتخذ موقفا ، وأي موقف اتخذ ونجاح بشعرها المرسل الطويل وببشرتها النحاسية وجسدها المكتنز تدفع بي لأقف على الحد . سأقف على الحد حتما . سأسجل موقفي وادافع عن شاربي كما أدافع عن مبادئي وضفيرتها المترنحة فوق ردفيها .

أنت متهم يا صابر بتعاونك مع أناس يقفون ضد الثورة . أنت منتم لحزب يناوئ حزبنا وعليه وجب إيقافك عند حدك .!!

فضيلة اخرى اقتنصتها من أحواض المدينة الفاضلة .

****

(٥)

البعد الرابع ياتي

يتسمر العيد عند البوابة الأولى ، وسادن البيت يودع بيته في أول صباحاته .. تطيل الانتظار ، وتبدأ الصورة بالاضمحلال شيئا فشيئا . تحمل هموم من فقدت وترحل . لقد أورثني ابي هما وأورثني شعرا وصمتا . باب آخر يفتح على مصراعيه أمامك يا ابن مرهون فتدخله مرتبكا متلعثما كأي غريب يحاول أن يكون مقبولا . استأجرت غرفة في بيت لعائلة تئن تحت وطأة العازة وتمنّي ابنائها ببعض ما تحصل عليه من جيوب الغرباء أمثالي بتأجيرهم غرفا من بيوتهم لقاء مبالغ زهيدة على غير رغبة ولكن على اضطرار . أنه بيت لصديق تعرفت عليه في مقهى من مقاهي المدينة اللعينة وأحبني واحببته فتوثقت علاقتنا رغم الفارق بين عمرينا ودعاني إلى بيته جارا ومؤجرا .. وقبلت..

. أنت ضيف ؟؟ لا . ولا مستأجر . البيت بيتك . كل من في البيت يقوم على خدمتك

. موضوع السكن ام عصام – قلت - الإيجار .. شنو إلي..شنو عليّ ؟؟؟. ألا تستحي !!.إنك أخ لابي وميض الذي لا أخ له . لقد حدثنا عنك . إنه يحبك . و... دخلت امرأة أعرفها . أنها زوجة صاحبي الذي دعاني إلى بيته – اختك . زوجة اخيك – قالت أم عصام – يعرف بعضكم الأخر . اليس كذلك يا عفاف ؟ أنا وحدي التي لم تلتق بك . أنا أم عفاف وأم

عصام وستكون أنت ولدي الثالث يا صابر . أهلا بك بيني وأختك وأخيك .. ولا عليك من النزلاء الآخرين . أنت تختلف عنهم . أنت واحد منا.

وتفرغت في مستقري الجديد لرؤية عفاف دون سواها . لماذا ؟ ليتني كنت أدري إذن لأزحت جبلا من الهم يجثم فوق صدري .عليك أن تكيف نفسك يا صابر لعالم جديد بدأت تضرب بين ابعاده . عالمك هذا يفضلك ولو لم يعلن حمارا على أن تكون سياسيا . لقد أقلق عصام البيت بسياسته، وعليك أن تكون كابحا لجماح ابا وميض . سأكون كذلك.. وعلى قراءاتي أن تتغير ، ولن يبقى لي إلا مقهاي وام وميض وبينهما يوم .. يومأن وتتتابع الأيام وتغدو اشهرا وام وميض تمرق أمامي في كل صحوة وغفوة حتى باتت وكأنها تقيم بين رموش عيوني .

الغزالة الفضية التي لم اصادف مثيلا لها من قبل ، الامرأة إلام ، القارئة الذكية والناقدة المتمكنة الأنيقة على ضيق يدها الذي لا يحرجها تأسرك أخيرا . فأين ستذهب بنجاح ووداد وسعديه وخلود وخوله وهذه وتلك ؟. أنهن أحلام مراهقة لا غير وقد جاءت الحقيقة مجسدة بأربعة احرف جديدة (عفاف) ، اختصرت عليك كل الأبجديات وما ورد فيها من اسماء ، فمرحى لمن يحب ويعرف كيف ومن ومتى يحب ، وتبا لك يا صابر المرهون . تبا لك ولانشدادك لفاكهة تعلوك فلا تستطيع إليها سبيلا ، ويظل يسبقك كلما تقدمت إليه . من هنا تبدأ أزمتك الجديدة . هنا يتجلى عقمك ، فليتك تستطيع النكوص عن رذيلة جديدة اشتهت المدينة دفعك بين فكيها. يحب الرجال ليقترنوا بمن يحبون . ويعشق الآخرون لينهلوا من بئر لا يكلفون أنفسهم حتى التحديق في قعره . وتحب

أنت لتشقى . فما أنت من يطمح إلى زواج ومبتغاك زوجة وأم . ولا ممن يشتهي ليأكل .. ولا أصعب من أن تخون أمانة استؤمنت عليها . إنك الشاذ الآخر والصورة المكررة من العوني والجندي والمعمم البغيض وإن حملت اسما مغايرا لما حملوا من أسماء . صابر المرهون لا يساوي شيئا . والعرق لا يبدد هما . ولفافات التبغ دقائق وتنقضي واحدة تلو الأخرى . عليك بالكتمان وحتى الموت . إيّاك والبوح بلفظ لسواك . كن حاذقا ولو مرة . عاني بمفردك ولا تدفع بسواك إلى طريق مغلق . هل تطمح لإطلاقة ترديك في جدث العار والرذيلة ؟ حاشا وأنت الصابر العاقل المحبوب المؤدب . . أن يخف وزنك لا ضير . أمّا أن يخفّ عقلك حتى تهذي فتلك هي المعضلة . إنها المعاناة المرة . فتحمل جريرة شذوذك وحدك ولا تحمل سواك ما لا طاقة له به . وكتمت كثيرا . عانيت الأمرين .. ومرت السنة الأولى ولحقت أو كادت بها الثانية ، وفي كل خطوة تخطوها كنت تتوهج وتحترق . تحطمت سياسيا ؟! هنيئا لك . لقد تجاوزت اساليب اللعب والضحك على الذقون . ندرت كتاباتك واقتصرت عليها؟؟، غدوت ذاتيا وكنت تتأجج بالثورة ؟؟ سقطت كل أفكارك في حضن أول امرأه صادفتك فأحبتك وعشقتها وشتان بين الأمرين ؟!!. كم مرة أقسمت أن تعود من الطريق الذي دخلته وأنت تدري أن أمرك خرج من بين يديك ؟. لماذا كل هذه المغالطات والتاريخ الأسود الذي تأبى الإفصاح عن كنهه يضج بأصغريك فيشل خطاك إلا عنها ؟!!. إعقل يا ابن مرهون وأنطو على نفسك ودع الآخرين لشؤونهم . وانطويت على نفسك . تركت البيت لساكنيه هربا من شبح يطاردك فيه . دخلت العام الثالث وأنت تعاني

وتموت لوحدك، وطيف عفاف يلازمك في شؤون حياتك . أدمنت زيارتهم بعد أن غادرت سكنهم . كم مرة هممت بالانقطاع عن هذه الزيارات وأثنتك عفاف بإيماءة منها ؟! وكم هممت بالانتحار فأخجلتك دمعة قد تسقطها عليك ؟؟. كابرت وداريت وأشعرتها دائما أنها محط اهتمامك وذاك هو الخطأ بعينه. أسقطتها في أحبولتك دون رغبة منك في اسقاطها، فلتعمد حبك بالاعتراف . واعترفت لها واعترفت لك فكنتما معا الضحية والقاتل والمقتول . كان عليك أن تكتفي بحبها إيّاك وهي الزوجة والأم فتضحي ... وأشهد أنك ما بخلت بغال ولا نفيس . لكنها الرغبة وللرغبة جولة سار بها الشيطان وما للسر أن يبقى سرا فانكشفت لها .. وانكشفت لك وتلك بداية المأساة . علام تريد دفعها إلى سلم الرذيلة وأنت الذي يحذرها من مدينة تضج بالعهر والانحراف ؟. خرج الأمر من يديك (وسبق السيف العذل) فليتك تستطيع إلى الهرب سبيلا .. تغازلها . تقبلها . تضمها اليك .! أبحت كل هذا لهواك وما اكتفيت ، فجنحت ويا له من جنوح مخل بالخلق أن تخلف لديك شيئا منه . ماذا تراك فاعل بعد الآن ويسراك الآثمة تمتد إليها فتتلمسها .. تطوف في جسدها . تضمها حتى توجعها..!!!.

أرجوك...أتدري أنك صرت هما يلازمني ؟! أتدري أنك تخلق لي متاعبا لست قادرة على إخفائها عن زوجي ؟! أتدري أنك ستقودني إلى مزيد من المتاعب ؟؟؟

.قبلة واحدة

.أوووف .. خذ .. بسرعه

.وتمتد يداك وتضغط شفتاك حتى تشعلها

.لا .. لا .. لا حبيبي

.حبيبي !!!...اللفظة التي انتشلتك من واقعك المر فانسللت هاربا .. وصاح بك هواك ، وزين العودة لك شيطانك ، فعدت لها ثانية لتغرق في الآثم حتى إذنيك . القيت بكفك اللعينة مرة أخرى عليها فانزلقت رغما عنك وعنها بين جسدها وثوبها . طافت بينهما فجذبتك إليها وما وعيت إلا وأنت ملقى عليها . احتضنتها واحتضنتك ولم تعرّها من ثيابها ، ولم تدنس جسدها لكن ما إن علا تحت جسدك لهاثها حتى أحسست بفقدانها فبكيت. تيقنت أنك جنحت متأخرا . اللعنة عليك . ومع من ؟؟ مع ظلك ؟! مع أمانة استؤمنت عليها ؟!. لقد اجرمت . أحدثت جريمتك تحت ضوء القمر مشهدا اياه على خستك . اجرمت ولا مبرر للجريمة .. بمعولك بدأت تحفر قبرين لك ولها . سقطت في المأساة وعليك أن تشهد بقية فصولها . اشهد أنك كائن من تكون إلا إنسانا . لماذا ؟؟ لأنك احببت وللحب هاجسان . أولهما مقدس وثانيهما آثم ، وويلك أن سبق ثانيهما أولهما . ويلك . ها قد سبق ثانيهما وتغلب على أولهما .

انتهت

البصرة . الشعيبة

١٩٨٦/١/١